

Journal of
Semitic Studies Supplement 1

**The Nabataean Tomb
Inscriptions of
Mada'in Salih**

HEALEY

نقوش المقابر النبطية في مدائن صالح

تحقيق وترجمة ودراسة

للدكتور: چون هيلي

مع ترجمة إلى العربية قام بها

الدكتور سليمان الذيب

قسم الآثار - جامعة الملك سعود

OXFORD UNIVERSITY PRESS
on behalf of
THE UNIVERSITY OF MANCHESTER

قائمة المحتويات

٤	مقدمة
٥	نقوش المقابر النبطية في مدائن صالح
٥	(١) تاريخ الأبحاث حول الموضوع
٨	(٢) وصف الموقع
١٦	(٣) التاريخ النبطي للمدينة
٣٠	(٤) الديانة والموتى
٣٥	(٥) المجتمع والقانون
٣٨	(٦) نقوش المقابر
٤٣	الخط النبطي واللغة النبطية
٤٣	(١) تاريخ الخط النبطي
٤٨	(٢) النبطية والأشكال الأخرى للآرامية
٥٢	(٣) النبطية والعربية

مقدمة

تعد منطقة " مدائن صالح " (٠) الأثرية بلا ريب ، أكثر المعالم الأثرية شهرة وأفضلها حفظا في المملكة العربية السعودية . ولا تعود الأهمية الأثرية لهذا الموقع الى كونه موقعا في القدم ، (فأقدم آثار الاستيطان فيه لا تتعدى النصف الثاني من الألف الاول قبل الميلاد) ، بل على الاصح ترجع الى القيمة الفنية والجمالية لطراز العمارة الصخرية الضخمة والآثار المهمة والكتابات القديمة التي خلفها قوم الأنباط . وقد كان هؤلاء على وجه التأكيد الأسلاف المباشرين للعرب في مهدهم بالجزيرة من الناحيتين العرقية واللغوية معا . ولقد وضعت دائرة الآثار السعودية الرسمية منذ أواخر السبعينات برنامجا طويل الامد لتطوير هذا الموقع ودراسته . وقد أنجز الكثير من أهداف ذلك البرنامج ، وشمل ذلك التحديد الدقيق للحدود الخارجية للموقع ، وحمائته بسور يبلغ طوله ٢٦ كيلومترا ، وإعادة بناء الاجزاء الأساسية لعدة مجموعات من الأبنية التي تمثل البقايا لسكة حديد الحجاز التاريخية . وكذلك تم تركيز عناية كبيرة على المدافن الصخرية القديمة التي تكون العناصر النبطية الرئيسية ، حيث تم توقيتها بشكل متكامل وأجريت فيها أعمال ترميم وإصلاح .

إن دراسة البروفسور هيلي ، التي هي بين أيدينا الآن ، لدليل ساطع على الجهد التوثيقي الذي بذل على آثار الأنباط . ولقد شارك د . هيلي في أعمال الابحاث التي جرت قبل عشر سنوات ، وبالنتيجة اسهم مساهمة قيمة في دراسة النصوص النبطية التي ظهرت في التنقيبات الاخيرة في مدائن صالح . وإنني أعتقد أن كل مهتم بهذا الموضوع ، حاضرا ومستقبلا ، سيفيد من هذه الدراسة ويدين لها بالكثير . ومن دواعي سروري العظيم أن أرحب بهذه الاضافة القيمة للتراث العلمي في مجال من الاختصاص كان مهملا الى حد كبير حتى الآن في حقل دراسات الشرق الادنى القديم .

يناير ١٩٩٣

د . عبدالله حسن مصري
وكيل الوزارة المساعد لشؤون الآثار والمتاحف
المملكة العربية السعودية

(٠) تعرف المنطقة ايضا باسم " قرية الحجر " المشار اليها في القرآن الكريم .

نقوش المقابر النبطية في مدائن صالح

عرفت مدائن صالح - التي تقع على بعد ١١٠ كم جنوب غرب تيماء على خط ٢٧.٥٢° شرقاً ، ٢٦.٤٧° شمالاً (انظر الخريطة أ) - في التاريخ القديم باسم "حجرا" . وهذا الاسم يماثل الاسم العربي القديم وهو "الحجر" الذي عرفت به لدى المؤرخين والجغرافيين المسلمين القدامى مثل الطبري . واسم مدائن صالح - الذي يشير إلى مدن صالح (كان عددها أصلاً سبعة) ظهر في الفترة الإسلامية المبكرة أو فترة ما قبل الإسلام مباشرة - حين بدأت الصلة بالنبي صالح (عليه السلام) . وكما تدل المصادر الإسلامية فقد كانت هذه المنطقة التي دعى فيها النبي صالح قومه - قوم ثمود المنتمين لهذه المنطقة - إلى عبادة الله إلا أنهم رفضوا رسالته . وقد ذكرت هذه القصة مرات متعددة في القرآن الكريم .

هذه القصة كانت أساس شهرة الموقع التي زادت في القرن الماضي حين بدأ العلماء الأوروبيون يهتمون بمدائن صالح ويدركون صلتها بالشعب القديم المعروف باسم "الأنباط" الذين كان موطنهم نحو الشمال في الأردن (حيث كانت البتراء هي المركز) وفي جنوب فلسطين .

١ - تاريخ الأبحاث حول الموضوع

كان أول تقرير مفصل عن أطلال مدائن صالح التي ترجع إلى العهد النبطي هو ذلك الخاص بالرحالة البريطاني الجسور شارلز داوتي ، الذي ربما كان أول أوروبي يزور الموقع في العصور الحديثة . ففي الفترة ١٨٧٦ إلى ١٨٧٧ سافر داوتي إلى مدائن صالح مع قافلة الحج المتوجهة من دمشق إلى مكة . ولم تكن لديه النية لإخفاء عقيدته الحقيقية فقد كان نصرانياً كما أنه لم ينو مرافقة الحجيج إلى مكة المكرمة ، وإنما بدلاً من ذلك توقف في مدائن صالح . حيث عاش في القلعة العثمانية التي أعيد ترميمها وتحت ظروف صعبة شرع في إعداد وصف تفصيلي للموقع . كذلك قام بعمل نسخ لأهم النقوش . ولقد اعتبر البعض كتابه الوصفي "رحلات في الصحراء العربية" الذي نشر في ١٨٨٨ كأحد أهم المؤلفات في الأدب الإنجليزي . وقد نشرت النقوش بواسطة الأكاديمية الفرنسية للنقوش في عام ١٨٨٤ ثم أضيفت بعد ذلك إلى كتاب "المجموعة الكاملة للنقوش السامية" المنشور من قبل

الأكاديمية نفسها ، فكان ذلك النشر الذي تم في عام ١٨٨٤ أول فرصة أتاحت في الميدان الأكاديمي لدراسة نقوش الموقع . ثم تلا داوتي الرحالة سي . هوبر في عام ١٨٨٠ الذي زارها في سنة ١٨٨٤ برفقة ج . أوتنج .

بعد ذلك وفي أعوام ١٩٠٧ و ١٩٠٩ و ١٩١٠ أجري بحث علمي هام في مدائن صالح تحت رعاية المدرسة الفرنسية بالقدس . من قبل القسيسان الكاثوليكيان أ . جوسين و ر . سافنيك شمل عمليات مسح تفصيلية ونسخ للنصوص من مختلف اللغات ، ونشر بحثهما في الفترة ما بين عام ١٩٠٩ و ١٩١٤ في كتاب "البعثة الأثرية في الصحراء العربية" . وكان من نتيجة ذلك البحث أن بدأت دراسة الموقع - ولا سيما دراسة النقوش الموجودة فيه - تقوم على أسس أكثر دقة وثباتاً . ولم يكتف هذا البحث بدراسة النصوص الرئيسية فقط وإنما أيضاً تناول بالدراسة التفصيلية مئات النقوش المحفورة على الصخور . من ثم فإن ذلك البحث كان بمثابة علامة مميزة ونقطة تحول في الدراسات حول الأنباط . ومن بين ما احتواه البحث صوراً لآثار الموقع ، وصوراً للنقوش ، مع نسخ لها على أوراق الكلك وقد نقلت هذه النصوص إلى الخط اليهودي الآرامي المربع ، مع ترجمات لها ومناقشات متفرقة حولها .

ولكن مما يلفت النظر أن العلماء قد أهملوا مدائن صالح إلى حد كبير بعد الحرب العالمية الأولى ، ولم تلق اهتماماً بعد ذلك إلا في عام ١٩٦٢ حين أدرجت في مسح دراسة النقوش الذي أجراه ف . ف . وينت و و . ل . ريد ، والذي نشر ج . ت . ميليك و ج . ستاركي عنه قسماً خاصاً في مؤلفهما تناول دراسة نقوش مدائن صالح المتعلقة بالأنباط ، التي تضمنت الجديد من النقوش إضافة إلى قراءات أفضل لأهم النصوص في بعض الحالات .

وفي عام ١٩٦٦ قام السيد/عادل عياش وهو خبير آثار بالإدارة العامة للآثار بإجراء مسح للموقع اكتشف خلاله سوراً للمدينة .

وفي عام ١٩٦٨ قام فريق من جامعة لندن بزيارة خاطفة للموقع كجزء من مسح أوسع نطاقاً حيث سجل خلالها بعض الاكتشافات السطحية ذات الأهمية الأثرية .

ومما له بعض الأهمية العملية ذلك المسح الذي أجراه للموقع في عام ١٩٧٩

المعهد الجغرافي القومي الفرنسي تحت رعاية إدارة الآثار والمتاحف ، حيث أسفر عن ترقيم منهجي منظم لكل المقابر ، و رغم عدم ظهور أي بحث منشور حول ذلك المسح ، فإن أرقام المعهد الجغرافي القومي تلك هي التي تستخدمها إدارة الآثار والمتاحف .

وثمة إسهام رئيسي في دراسة العلا ومدائن صالح نشر باللغة العربية من قبل د . عبدالرحمن الطيب الأنصاري ود . أحمد غزال ود . جفري كنج في مؤلفهم الذي نشر في عام ١٩٨٤ .

ومنذ عهد قريب أجريت حفريات على نطاق ضيق في عام ١٩٨٦ كجزء من البرنامج البحثي لإدارة الآثار في الرياض أسفر عن إصدار تقرير من قبل السادة ضيف الله الطلحي ومحمد الإبراهيم وجمال محمد مرسى . وتعد النتائج الأولية لهذا البحث جيدة للغاية . ولاشك أن المزيد من البحث الأثري الأوسع نطاقاً سوف يلقي كثيراً من الضوء على المدينة .

وفي عام ١٩٨٥ أجريت أبحاث هامة - أثناء أعمال إدارة الآثار في تطهير الموقع كجزء من مشروع تطويره - قادت إلى اهتمام مؤلف هذا الكتاب بالموضوع حيث كان مشتركاً في هذه الأبحاث كاستشاري في المحافظة على نقوش مقابر الأنباط . وقد أتاحت الزيارة التي قام (المؤلف) بها والتي يسرها له د . عبد الله المصري مدير إدارة الآثار للموقع سمحت لى (المؤلف) باستنساخ جديد لنقوش المقابر والتقاط صور لها بمساعدة جيمي سمپسون مصور الموقع . وهو عمل كشف عن بعض القراءات الجديدة لها واكتشاف نقش جديد على واجهة مقبرة أخرى وعدد آخر من النقوش الجديدة . وقد أوضحت الدراسة اللاحقة لها عن وجود حاجة ملحة إلى دراسة موسعة لنصوص المقابر أكثر تفصيلاً مما نشر حتى ذلك الحين . ذلك أنه ليس من بين المؤلفات التي نشرت حتى ذلك الوقت من تمكن من الاستفادة الكاملة من تقنية التصوير الفوتوغرافي الحديثة ، كما أنه ليس بينها من أجرى أي محاولة لدراسة تلك النقوش مستعيناً بدراسات فقه اللغة التاريخي المقارن والدراسات الجديدة الخاصة بعلم النقوش بالإضافة إلى أنه لم تنشر أي دراسة لهذه النصوص باللغة الإنجليزية منذ نشر ج . أ . كوك في عام ١٩٠٣ كتابه "دراسة النقوش السامية الشمالية" الذي تضمن مجموعة مختارة من نصوص مدائن صالح . هذا فضلاً عن أن دراسة النقوش الأرامية المتأخرة بصفة عامة والنقوش النبطية بصفة خاصة قد حققت خطوات للأمام باللغة

الأهمية منذ عام ١٩٠٣ . ويمكن أن نذكر منها على سبيل المثال ما يلي :

(أ) في عام ١٩٠٣ لم تكن دراسة جوسين وسافنيك قد نشرت بعد .

(ب) في عام ١٩٠٣ لم تعرف أي نماذج للنبطية المكتوبة على البردي . أما النماذج التي نشرت بعد ذلك فكان لها تأثير بالغ على دراسة النقوش النبطية (انظر الفصل الثاني) .

(ج) في عام ١٩٠٣ لم تكن هناك أي معرفة بقواعد النحو الخاص باللهجة الآرامية النبطية ، حيث لم تظهر هذه المعرفة إلا بعد ثلاثين عاماً ، أي بعد أن نشر ج . كانتينو كتابته الشهير "الأنباط" الذي لا يمكن الكتابة عن النقوش النبطية دون الرجوع إليه .

(د) في عام ١٩٠٣ كانت التدمرية المصدر الوحيد المعاصر للآرامية المتأخرة . حيث أن الآرامية الحضرية لم تكن معروفة كما أن سريانية (الرها) المبكرة لم تعرف إلا من خلال نقوش قليلة .

٢ - وصف الموقع

تقع مدائن صالح في سهل رملي تحوطه الجبال . وبالنسبة للسماوات السطحية والجيولوجية للموقع فيمكن الرجوع إلى ما كتبه الطلحي ورفاقه الذين وصفوا الموقع بأنه يقع عند نقطة التقاء وادي الحمضة الذي ينحدر من الجبال الواقعة غرب الموقع مع وادي المزز الذي يبدأ من الشمال .

وقد وصف الموقع بأنه عبارة عن ترسبات رباعية مؤلفة من الحصى والرمل والطيني وغرين الوادي وتوجد أيضاً أراضي طينية مالحة منبسطة . أما الجبال الموجودة حول "الحجر" فهي من الحجر الرملي من نوع القويرة الأصفر أو البرتقالي اللون المترسب في طبقات رقيقة .

ويمكن أن يقسم الموقع إلى ثلاثة أقسام وهي : المقابر ، و جبل إثلب ، ومنطقة الاستيطان (انظر الخريطة أ i) .

المقابر

يبلغ عدد المقابر الأثرية ثمانين مقبرة أغلبها موجود في مجموعات بارزة فوق سطح الأرض على طبقات صخرية من الحجر الجيري رمز إليها جوسين وسافنيك بالحروف (A , B , C الخ) ولها أسماء محلية باللغة العربية ، فمثلاً الطبقة الصخرية البارزة البيضاء والتي عليها مجموعة المقابر B اسمها قصر البنت (انظر اللوحة vi) . وكما أوضحنا من قبل فإن إدارة الآثار أيضاً تستخدم الأرقام التي وضعت خلال المسح الذي أجراه المعهد الجغرافي القومي الفرنسي والتي تشمل كل الكهوف والمقابر البارزة وغير البارزة .

ومن بين الست والثلاثين مقبرة الحاملة للنقوش توجد ثلاث مقابر منها غير مؤرخة (ولو أن أربع مقابر أخرى بها تواريخ غير مؤكدة) . أما باقي تلك المقابر فيما عدا واحدة (٢٨ مقبرة) فتعود إلى الفترة الواقعة ما بين السنة الأولى قبل الميلاد أوبعده و٧٤/٧٥ م. ومن الواضح أنه حدث تدهور بعد ذلك في بناء المقابر الجميلة ، وهناك احتمال أن تركيز المقابر الجميلة التي تنتمي لأشخاص عسكريين أو مسؤولين رسميين (مع العلم بأن وظيفة صاحب المقبرة كثيراً ما تكون مذكورة في النقش الخاص بها) - في الفترة من ٥٠ إلى ٧٥ م - يشير إلى وجود حاجة إلى أعداد أخرى من العسكريين في مدائن صالح . ومن المحتمل أيضاً أن الأنباط قد انسحبوا بالفعل من مدائن صالح بعد عام ٧٥ م بقليل .

وقد بذلت جهود لتصنيف هذه المقابر إضافة إلى ما يقرب من ٥٠٠ مقبرة أخرى في البتراء بالأردن تصنيفاً قائماً على أساس خواص طرزها . وفي البتراء (حيث لا توجد مقبرة من المقابر المبكرة مؤرخة بوضوح) اعتقد في البداية أن أسلوب تطور المقابر قد تم تدريجياً مع الزمن فالمقابر ذات الأسلوب البسيط هي الأقدم . بينما في مدائن صالح توجد مقابر كثيرة مؤرخة لكنها ذات طراز مختلف ، و تحليل هذه الملاحظة يظهر أن الطراز المعماري للمقبرة لا يتبع أي ترتيب زمني . بل أن طراز المقابر المزخرفة كان معروفاً ومتبلوراً في القرن الأول الميلادي ، واختلاف طرز (هذه المقابر) ما هو إلا انعكاس للخلفية الاقتصادية لملاك هذه المقابر .

وتتشابه تفاصيل مقابر مدائن صالح مع تلك التي في البتراء حيث تتكرر على واجهات هذه المقابر السلالم والشرفات وظهور أنماط من المزهريات .

أما الأشكال البشرية فلا وجود لها ، في حين أنَّها موجودة في البتراء ولكنها قليلة ، وتظهر أشكال للنسور والأفاعي وأشكال خرافية (مثل حيوان له جسم أسد و رأس امرأة أو نصفه نسر ونصفه الآخر أسد) ورسومات عبارة عن مخلوقات شيطانية خرافية (غالباً ما تبرز الوجوه فقط) ، إضافة إلى أقراص الشمس والأشكال الوردية إلخ (انظر اللوحات ii-iii) . وتعد المقبرة IGN 37/B17 إحدى المقابر التي تستحق الذكر حيث زينت بأقراص الشمس مع حيوانين خرافيين في أعلى البوابة (انظر النقش H15) . ودلالة وجود النسور (التي أتلقت كلها) فوق فتحات الأبواب مثير جدل رغم أنَّ النسور على وجه العموم يمثل الشمس أو الآله ذوالشرى باعتباره الذي يحمي المقبرة من الانتهاك . ويمكننا أيضاً أن نفترض نفس الدور بالنسبة للأشكال الشيطانية الأخرى .

وقد ترك لنا البناء الذي نحت المقبرة رقم 37 IGN اسمه - وهو أفتح - بجانب اليد اليسرى للحيوان الخرافي . ويبدو أنَّ عدداً من الواجهات من صنع يديه . وهو ينتمي إلى أسرة بنائين كانت في مجموعها مسؤولة عن جزء كبير من المقابر التي تحمل نقوشاً وربما أيضاً عن كثير من المقابر التي ليس بها نقوشاً والتي منها واحدة تحمل نقشاً موجزاً على سطح صخرة موجودة بجانب المقبرة ويتضمن اسم البناء .

وكما نعلم فإنه عند نحت أي مقبرة من الصخر كان البنائون يبدأون العمل من الأعلى ، وهناك عدد من المقابر غير التي يكمل بناؤها، والتي تظهر ذلك (المقابر أرقام 46,109,110 IGN) . ومن الواضح أنَّ الأسطح المزينة نحتت بكل عناية . ويمكن ملاحظة علامات الإزميل في كل مقبرة تقريباً .

وتوجد ببعض أجزاء أسطح المقابر نقوش مختصرة توجي بأنها تنتمي لشخص بعينه كان ينوي بناء مقبرة في الموقع . ويبدو أنَّ هذا هو الحال بالنسبة للنقش الموجود على يمين المقبرة 17 IGN الذي يقرأ كالتالي "ربال - الحاكم - استحوذ على ملكية هذا المكان" وفي أعلى ذلك النقش يمكن رؤية بداية مقبرة جديدة . أما لماذا ترك ذلك النقش وبعض النقوش الأخرى دون تكملة فهو تساؤل تركت إجابته للتخمين فهل كانت هناك كارثة اقتصادية أو عسكرية مفاجئة ؟

أما الأجزاء الداخلية من المقابر والتي ليست بنفس روعة الأجزاء الخارجية فهي أحياناً معقدة للغاية (انظر اللوحة ٧) فعلى سبيل المثال فإن المقبرة 9 IGN (لوحة أ) تحوي ثلاثة وخمسين مكاناً للدفن على حسب تقدير جوسين وسافنيك ، بعضها ربما كان قد أضيف في فترة ما بعد الانباط في حين أن اللحد الصغيرة ربما قصد منها أن تكون للأطفال أو حتى لجمع العظام معاً لاستغلال المكان ، ويشير ذلك إلى ممارسة الدفن الثاني . وتوجد في النقوش إشارة إلى تقسيم المقابر فيما بين أعضاء العائلة . والمشكاة الموجودة في بعض المقابر قد تكون واسعة جداً في حين أنها في البعض الآخر تكفي بالكامل لاستيعاب جثة واحدة أو حتى عظام مجمعة إذا كان الدفن الثاني قد أتبع (انظر أسفل) . ويبدو أن بلاطاً قد استخدم لتغطية كل المدافن الفردية كما وجدت بعض الشظايا عليها علامات كتابية مما يوحي أن هذه الشظايا كانت تحمل أسماء ويوجد في بعض الأحيان نقش بداخل المقبرة على الحائط بجانب أو فوق المشكاة ، كما هو الحال بالنسبة للمقبرة 30 IGN (اللوحة ٧) بالإضافة إلى النقش الموجود بالخارج على الواجهة . وهذه النقوش الموجودة على الواجهات لها أهمية كبيرة . حيث يكون النقش الخارجي في بعض الحالات محفوراً على لوحة داخلية في الإطار الموجود على الواجهة . وربما كانت على الواجهات طبقة طلاء أو جص أو ربما كانت مزينة بشكل آخر .

ونحن نعلم من مقابر البتراء أن المقابر يمكن أن تكون مزودة بتجهيزات أخرى ملحقة بها مثل حجرات للمآدب التذكارية وحدائق إلخ . وتعطينا نقوش المقبرة التركمانية تفاصيل لتلك التجهيزات ، هذا في حين أن المقبرة المسماة مقبرة الجرة مقبرة عونيشو لها مباني واضحة ملحقة بها . ولا يوجد مثال واضح لذلك في مدائن صالح ولو أنه قد يلاحظ أن النتوء (الإفريز) الموجود خارج إحدى المقابر (9 IGN انظر اللوحة أ) قد يكون هو الذي أشير إليه عندما يتحدث النقش عن السياج المرتبط بالمقبرة .

وكما سنرى ، فإن نقوش المقابر تعطي معلومات عن ملكيتها وعن حقوق الدفن والحدود القانونية للتصرف في المقبرة أو الحيز الموجود فيها ، كما تتضمن في كثير من الأحيان لعنات لمن ينتهك حرمة المقبرة والغرامات التي يتعين على أي شخص يقوم بتغيير نصوص النقش دفعها . كذلك فإن مكانة الأشخاص المعنيين بالمقبرة تذكر في كثير من الأحيان ، ومن هنا جاء مصدر معرفتنا بالحكام والقادة العسكريين إلخ . وغالباً ما تكون المسميات الوظيفية المستخدمة في ذلك مشتقة من اليونانية أو اللاتينية ، ولكن هناك

دلائل كثيرة على التأثير العربي أو اللحياني المبكر في لغة هذه النصوص .

جبل إثللب

يقع جبل إثللب إلى الشمال الشرقي للموقع ، وهو عبارة عن سلسلة من القمم الصخرية الشديدة الانحدار تحيط بغور في الوسط يدنو عبر ممر ضيق يطلق عليه اسم "السيق " تشبيهاً له بالممر الضيق الطويل في البتراء (انظر الخريطة iii ، اللوحة vii) .

عند مدخل الممر الضيق يوجد أشهر صرح في مدائن صالح ، بخلاف المقابر، وهو المعروف "بالديوان" (انظر اللوحة x) وهو عبارة عن مدرج واسع ثلاثي الانحدار Triclinium (عرضه ١٠ متر وعمقه ١٢ م) وقاعة مفتوحة بها دكات حجرية طويلة على الجوانب الثلاثة . وهذا النوع شائع في البتراء لكن "الديوان" هو الشكل الوحيد الذي عرف من هذا النوع في مدائن صالح ويطلق عليه الأهالي المحليين "مجلس السلطان" حيث يحتمل أنه كان يستخدم للمآدب المقدسة ، ولو أنه لا يوجد أي نقش يتعلق بالديوان . وعلى خلاف ما هو موجود في البتراء ، فإن ذلك الديوان مقدمته مفتوحة تماماً مثل الإيوان . وهذا النمط المفتوح يوحي باشتراك حشود كبيرة من الناس في مثل هذه الاحتفالات . ويشير إلى الأهمية الدينية لذلك المكان شكل ديني صغير موجود على يمين الديوان ، ولو أنه يوجد أيضاً على مقربة مع العديد من النقوش بعضها ديني صريح .

وحتى في العصور الأحدث كان هذا "الديوان" عامل جذب للمارة ولعابري السبيل . حيث توجد نقوش عربية حديثة (بالإضافة إلى نقوش كوفية قديمة لها أهمية في دراسة الخط العربي) وكذلك نقوش قديمة بالنبطية والآرامية والشمودية والإغريقية وغيرها كما توجد أيضاً كثير من الرسوم الصخرية تصور الوعول وحيوانات صيد أخرى وجمال في سلسلة قوافل . ومن المعتقد أن هذه الرسوم من إنتاج أهالي المنطقة في عصر ما قبل الإسلام (الشموديون وغيرهم) ، وربما كان المسافرون بقوافل الجمال يزورون ذلك المكان لتقديم القرابين وأداء الصلوات قبل أن يواصلوا رحلتهم إلى الجنوب . ويوجد في مواجهة الديوان بجانب مشكاة دينية نقش يحيي ذكرى الآله "شيع القوم" الذي عرف بأنه آله البدو الرحل وطرق القوافل .

مثل أشكال هذه المشكاة الدينية واضحة جداً في منطقة جبل إثللب ، سواء في الداخل أو على واجهات الصخور التي تحيط به . وغالباً ما تحتوي هذه المشكاوات على نصب صغيرة بارزة تمثل الآله ذو الشرى وحده أو مع الآلهة الأخرى المرتبطة به . وثمة نقش مشهور بصفة خاصة يعلو مشكاة في الممر الضيق المؤدي إلى المنطقة الوسطى موجودة إلى اليسار بالقرب من الديوان مكرسة للآله أرا- آله بصرى- وهو الذي يماثل تماماً الآله ذو الشرى في أماكن أخرى .

ولا بد أن المساحة المفتوحة في داخل جبل إثللب كانت تستخدم للطقوس الدينية ، وهي عبارة عن حرم طبيعي كما وصف من قبل جوسين وسافنيك ، خاصة وأن أشكال المشكاة الدينية الموجودة تعكس ذلك ، وهناك نقش موجود إلى يسار المنطقة الوسطى يشير بوضوح إلى المآذب الدينية م ش ك ب أ في حين توجد إلى اليمين وأيضاً في الجانب المواجه للمساحة الوسطى غرف مشابهة للديوان .

وفي وسط المنطقة يوجد إلى يسار المشكاوات ما يمكن اعتباره مذبح يبدو أنه في الأساس مصحوب بنقش لم يبق منه إلا الإطار (انظر لوحة xii) حيث توجد أشكال مشابهة له في الأردن و يحتمل أن يكون تاجاً للآله ذو الشرى حيث أن هناك نقشاً ينص على أن تاجه يقدس بمفرده وذلك كمظهر من مظاهر الآله (انظر أدناه) .

وفي الجانب المقابل للغور الأوسط توجد سلالمة تؤدي في النهاية - عن طريق أخدود ضيق ماراً بمشكاوات أخرى وأحواض شعائرية - إلى هضبة صغيرة يمكن وصفها بأنها مكان مرتفع . ومن المؤكد أن النصب والأشكال الحجرية المحفورة على وجه الصخر (ذات العينين والأنف) والمحاطة بنقوش لا بد وأن تكون بؤرة مميزة للعبادة في منطقة جبل إثللب (انظر اللوحة xiii) . وبمقارنة بما يماثله في البتراء وموقع رم في الأردن يوحى بأن النصب يمثل الآلهة "العزى" . فيما بعد هذه الهضبة (عند إفريز يتعذر الوصول إليه للغاية يواجه الغرب في وسط المدينة) يوجد نقش طويل يشير إلى آله يسمى "آله المعبد" ربما يكون الآله " ذو الشرى " ويدل النقش على مكان اجتماع طائفة من أتباعه .

وثمة أخدود رئيسي يكاد يكون في وسط سلسلة الجبال يؤدي إلى مصدر

مياه وواجهات الصخور في هذه النقطة مغطاة بنقوش نبطية صغيرة ، ويمكن رؤية قناة المياه من أسفل وهي تجري منحدرية إلى المنطقة الوسطى حيث كان الماء يستخدم بدون شك لأغراض شعائر الطهارة . ولقد اشتهر الأنباط بأساليبهم الخاصة بالمياه . ويبدو أن الآبار في مدائن صالح كانت المصدر العادي لإمدادات المياه ولكنّ جبل إثلّب كانت له إمداداته الخاصة به من المياه العذبة من الصهاريج الموجودة في قمة الجبل .

وكلما اتجهنا نحو الجنوب فإن المنطقة الوسطى تنحدر إلى تل رملي ثم تقود إلى ساحة مفتوحة مرة أخرى و من هناك يمكن رؤية الجزء الآخر من جبل إثلّب والبروزات الصخرية الصغيرة الأخرى الموجودة إلى الغرب ، ومن ضمنها واحدة بها كثير من النقوش الإغريقية ، وواحدة أخرى صغيرة جداً ربما كانت لها أهمية دينية ، حيث أسماها سافنياك "الملاذ المقدس" وهي عبارة عن صخرة صغيرة عمل بها تجويف لتشكيل حجرة مفتوحة المقدمة تواجه جبل إثلّب (انظر اللوحة viii) ، وبداخلها توجد أشكال مشكاوات وبعض النقوش القليلة و يبدو أن أحدها يشير إلى تمثال موجود في إحدى المشكاوات ومع ذلك من الممكن التسلق إلى سطح الصخرة حيث توجد تجهيزات منحوتة على سطح مستو توهي بوضوح بأن ذلك "الملاذ" كان مكاناً مقدساً وكانت له أهمية ما . وهذا المكان يشرف على مشهد رائع لجبل إثلّب من ناحية والمقابر ووسط المدينة من ناحية أخرى ، حيث يشاهد جانب جبل إثلّب الشرقي الذي يحتوي على العديد من أشكال المشكاوات والنقوش واثنين من المحاجر العديدة المتناثرة حول الموقع والتي لا بد أنها كانت مصدر مواد البناء التي استخدمت في وسط المدينة .

منطقة التوطن

كانت المدينة أقلّ أقسام مدائن صالح ظهوراً للعيان بين المنشآت الأخرى فهي ما زالت كامنة تحت الرمال في وسط الموقع . ومن المرجح أن الأحجار المنحوتة نحتاً جيداً والقابلة للنقل كانت نمطاً مستحباً دائماً حيث يمكن إزالتها وإعادة استخدامها بخلاف أحجار الديوان والمقابر. وهذا ما يفسر سبب اتباع هذه الطريقة المجهدة في البناء أن هذه الأحجار تدوم إلى الأبد . لذا ففي المباني المشيدة فيما بعد في مدائن صالح مثل الآبار (التي أعيد بناؤها مع أنها ربما كانت ذات أصل قديم) والقلعة العثمانية يمكن أن تجد كتلاً حجرية نبطية أعيد استخدامها ثانية . ومن بين تلك الآبار بئر يحتوي على

كتلة حجرية تحمل تاج عمود و بداخله نقش نبطي في وضع مقلوب ، في حين يوجد في بئر آخر حوض حجرى نبطي كان يستخدم حتى عهد قريب كما أن مواد بناء القلعة تشمل أحجاراً تحمل نقوشاً معينة .

مع هذا فإن المسح الأثري السطحي (مثلاً بالقرب من المقابر E) قد أسفر عن كسر أواني خزفية نبطية يرجع تاريخها إلى القرن الأول قبل الميلاد وبعده . وقد وجدت أنواع منها في البتراء وفي مواقع نبطية أخرى وذلك إلى جانب أشغال يدوية فنية أخرى ، هذا في حين أن الحفريات الحديثة العهد التي أجريت في اثنتين من الروابي الصغيرة في منطقة الاستيطان قد كشفت عن مباني حجرية وأنواع مختلفة من الأشغال اليدوية الفنية النبطية بالإضافة إلى الأواني الفخارية والعملات و من بين ذلك العملات التي عثر عليها في حفريات ١٩٨٦ والتي يظهر عليها رأس ملك وملكة من النوع الشائع في فترة الحارثة الرابع ويرجع تاريخها تقريباً إلى ٢٥ - ٤٠ بعد الميلاد . وتوجد أيضاً بقايا حجرية مثل الأعمدة التاجية والأحواض وعلامات المباني يمكن رؤيتها في مواضع مختلفة على السطح . وقد تمكن سافنيك من تحديد موضع أساسات حجرية وأشار إلى موضع لقلعة المدينة القديمة (انظر الخريطة i) بينما أمكن أيضاً تحديد موضع أسوار المدينة . كما عثر أيضاً في هذه المنطقة على عدد من العملات النبطية وعلى ساعة شمسية نبطية جميلة موجودة الآن في متحف الشرق القديم بإستانبول (انظر اللوحة ix) .

ولو جاز لنا أن نتوقع العثور على منشآت أخرى غير المباني السكنية فلا بد أن نعثر على معابد وذلك لانتشار عدد كبير من المدافن ووجود نصين أحدهما في أحد هذه المدافن والآخر في جبل إثللب وكلاهما يشيران إلى معبد كما نتوقع العثور أيضاً على مبان إدارية خاصة بالجيش وجباية الضرائب . وفيما يتعلق بالنشاط التجاري يمكن أن نتوقع أنه كانت هناك أمكنة خاصة بالقوافل وربما أسواق كما هي الحال بالنسبة للبتراء . هذا مع العلم بأن البتراء وتدمر فيهما شوارع رئيسية رائعة ذات طراز روماني تحفها الأشجار المتناثرة والقناطر والبوابات و مثل هذا الشارع كان موجوداً في "الحجر" ويبدو أنه كان يخرق المدينة من الشمال إلى الجنوب . وكثير من المباني الأكثر أهمية ربما كانت على الطراز الإغريقي - الروماني مثل ذلك الذي يوجي إليه طراز المقابر وبقايا الأعمدة التاجية الحجرية التي وجدت على السطح .

٢ - التاريخ النبطي للمدينة

في واقع الأمر أن الآثار الشاخصة في مدائن صالح (فيما عدا بقايا مبنى سكة حديد الحجاز التي تخترق وسط المدينة والقلعة العثمانية التي تحرس طريق الحج) كلها نبطية ويرجع تاريخها إلى القرن الأول الميلادي . وبعض النقوش النبطية التي يرجع تاريخها إلى ما بعد ذلك حتى القرن الثالث الميلادي ، كما توجد نقوش باللغة العربية يرجع تاريخها إلى القرنين الأول والثاني الهجريين ، ولكن من الواضح أن المدينة قد ازدهرت في القرن الأول الميلادي ، وهو ذلك الوقت الذي شكلت فيه المنطقة جزءاً من المملكة النبطية التي مركزها البتراء في الأردن . ولكي يتسنى فهم هذه الفترة من تاريخ المدينة فلا بد لنا من وضعها في سياق التاريخ النبطي .

لمحة تاريخية عن الأنباط

ليس من الملائم في هذا المقام أن نخوض في تفاصيل تاريخ الأنباط . ويمكن للقارئ أن يرجع إلى العديد من المؤلفات الحديثة في هذا الموضوع . مع ذلك فمن الضروري هنا تقديم سرد موجز نركز فيه على ما نعرفه عن المجتمع النبطي القديم ، حيث أن تلك المعلومات لا بد أن تنطبق في خطوطها العريضة على كل المدن النبطية .

والشعب النبطي المعروف في المصادر الوطنية باسم ن ب ط و شعب أصله غامض إلى حد كبير . وكلا من النقوش النبطية والمصادر الإغريقية فيما بعد ذلك تربط بينه وبين قبيلة أخرى هي ش ل م و . وكانت أولى مستوطناتهم في جنوب الأردن وفلسطين ولو أنهم ربما قد جاؤوا أصلاً من الشرق ، من المناطق الحدودية الشمالية للمملكة العربية السعودية حالياً ، في حين أنه يمكن القول أيضاً أنهم يمثلون تحولاً متأخراً للسكان القدامى لجنوب الأردن ، وهم الأدوميون .

والكتاب الإغريق الذين ذكروا هؤلاء القوم (ومنهم المؤرخ اليهودي جوزيفوس الذي كتب في القرن الأول الميلادي وعرف المنطقة جيداً) يسمونهم في كثير من الأحيان عرباً و على ضوء ذلك وبالإضافة إلى الدلائل الواضحة التي تشير إلى التأثير العربي على اللغة الآرامية في النقوش النبطية وإضافة إلى أسمائهم الشخصية وديانتهم ، يمكننا أن نكون على ثقة تامة من

أنهم كانوا جماعة عربية استقرت في تاريخ غير معروف لتكوين دولة . وقد استخدموا الآرامية في نقوشهم لأنها كانت - بعد انحسار الكتابة المسمارية - قد أصبحت اللغة التقليدية للثقافة عند الساميين . وتعكس المصادر الإغريقية خلفية اجتماعية شبه بدوية للأنباط حيث تذكر بأنهم لم يكن لهم في الأصل بيوتاً مبنية ولم يتعودوا شرب النبيذ وأنهم كانوا يربون الأغنام والجمال .

ومن المؤكد أن أعلم الكتاب الإغريقين الذين اهتموا بالفترة النبطية المبكرة هو ديودوروس سيكولوس (٨٠ - ٢٠ ق م .) وقد كان مصدر معلوماته الرئيسي هو المؤرخ هيروديموس الذي كان على ما يبدو موجوداً في المجتمع الإغريقي في أثناء أحداث سنة ٣١٢ ق م . التي قادت إلى اتصال الإغريق بالأنباط (xix.100.1) اتصالاً جيداً . وهناك روايات متنوعة لديودوروس تعكس نمط حياة الأنباط وفقاً لما عرفه هو وهيروديموس عنهم ومنها ما يلي:

"والآن فإن الأجزاء الشرقية (للأراضي الواقعة بين سورية ومصر) يسكنها عرب يحملون اسم الأنباط يترحلون عبر بلاد جزء منها صحراء وبلا ماء ولو أن جزءاً صغيراً منها مزدهر ، ويعيشون حياة اللصوصية ويسلبون أجزاء كبيرة من الأراضي المجاورة التي يجتازونها خصوصاً وأنه يصعب التغلب عليهم في الحرب . وذلك لأنهم يتجهون إلى المنطقة الخالية من الماء (كما تسمى) حيث قاموا بحفر آبار فيها على مسافات مناسبة ويقومون بالانسحاب الجماعي إلى هذه المنطقة خارج نطاق الخطر" .

"و يوجد أيضاً في أرضهم ملاذ صخري حصين للغاية ليس له سوى مرتقى واحد يتسلقونه قليلاً في كل مرة ومن ثم يتمكنون من بلوغ ذلك الملاذ فيخزنون غنائمهم في أمان كما توجد أيضاً بحيرة كبيرة تنتج الأسفلت بوفرة ويحصلون منه على دخل ليس بالقليل" .

"وهم يعيشون في العراء و يدعون لأنفسهم ملكية أراض قفراء ليس بها أنهار ولا ينابيع غزيرة يمكن منها لأي جيش معتد أن يحصل على الماء وقد جرى العرف بينهم على ألا يزرعوا حباً أو ينبتوا أي شجرة تحمل ثماراً أو يستخدموا نبيذاً أو يبنوا أي بيت . ولو عثر على أي شخص يفعل عكس ذلك فالموت هو جزاؤه . وهم يتبعون هذا العرف لأنهم يعتقدون أن أولئك الذين يملكون مثل هذه الأشياء يتعرضون في سبيل المحافظة على استخدامها بسهولة إلى إجبار الأقوياء لهم على الانصياع لأوامرهم . ويقوم البعض منهم

بتربية الجمال و البعض الآخر بتربية الأغنام التي يرعونها في الصحراء . ورغم أن الأنباط لا يزيد عددهم كثيراً عن عشرة آلاف إلا أنهم يفوقون غيرهم في الثروة حيث اعتاد عدد غير قليل منهم على أن يجلبوا إلى البحر لبناً وبخوراً ومرأ وأثمن أنواع التوابل ، مما يحصلون عليه من أولئك الذين ينقلونه من ما يسمونه إدوم العربية . وهم مولعون بالحرية على نحو لا مثيل له ، ومتى اقتربت منهم قوة معادية قوية فإنهم يبادرون إلى اللجوء إلى الصحراء ."

"وهم يستعملون في غذائهم اللحم واللبن والنباتات التي تنمو في الأرض الصالحة لهذا الغرض والتي من بينها الفلفل وكثير مما يطلق عليه اسم العسل البري المأخوذ من الأشجار والذي يشربونه مخلوطاً بالماء" .

وفي نص آخر رسم ديودوروس صورة مختلفة :-

"بعد أن يبحر المرء متجاوزاً هذه البلاد (أى جنوب سيناء) يصل إلى خليج الليانيت (أى خليج العقبة) الذي يوجد حوله الكثير من القرى المأهولة بالعرب المعروفين باسم الأنباط . وهذه القبيلة تقطن جزءاً كبيراً من الساحل وجزءاً غير قليل من الأراضي التي تمتد للداخل ، ويبلغ قوامها عدداً أكبر من أن يحصى وتبلغ أعداد قطعانها حداً يفوق التصور . وفي الأزمنة القديمة كان هؤلاء القوم يراعون العدالة ويقنعون بالغذاء الذي يحصلون عليه من قطعانهم ولكن فيما بعد ، وذلك بعد أن سلك ملوك الإسكندرية طرق البحر الصالحة للملاحة لتجارهم لم يعد أولئك العرب يكتفون بمهاجمة السفن الغارقة فقط بل أنهم بدأوا يستعملون سفن القراصنة يبنونها ويهاجمون بها المسافرين . أحياناً وبعد فترة اصطيادوا في أعالي البحر ونالوا العقاب الذي يستحقونه" .

ولعل هذا النص الأخير يشير إلى فترة قصيرة جداً اتسمت بالقرصنة النبطية في تاريخ متأخر حين كان الاحتكار التجاري النبطي مهدداً . ويشير التلميح إلى أن ملوك الإسكندرية قد استعملوا الطرق البحرية في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد .

ورغم أنه لا بد من توخي الحذر في تناول هذه الروايات ، إلا أنها تعطي عن الأنباط صورة متماسكة ومثيرة للاهتمام على الأقل في تاريخهم المبكر . وقد

أصبحوا فيما بعد دون شك أقل ترحلاً وبدأوا في نمط حياتهم ، ولو أن هناك احتمالاً - على سبيل المثال - أن تكون الخيام قد ظلت السكن المفضل لديهم حتى في الفترة التي أخذ الأنباط يبنون فيها معابد ومقابر متقنة .

والمصدر الرئيسي الآخر عن الحضارة النبطية هو كتاب "الجغرافيا" لسترابو (٦٤ ق م . - ٢٥ م) والذي يعطي المعلومات الآتية عرضاً : -

"يحكم البتراء دائماً بعض الملوك من الأسرة الحاكمة . ويتخذ الملك من بين رفقاته مساعداً يطلق عليه "أخ" . و المدينة إلى حد بعيد حكمت بشكل جيد ، على أي حال فإن رفيقي الفيلسوف أثينودوروس الذي عاش في مدينة البتراء ودرج على وصف حكومتهم بإعجاب قال إنه وجد فيها كثيراً من الرومان وغيرهم من الأجانب يقيمون فيها ، وأنه كان يرى أن الأجانب منهمكون في القضايا سواء فيما بين بعضهم البعض أو مع السكان المحليين في المدينة ولكنه لم ير من بين أهالي المدينة من يقاضي أحدهم الآخر، بل أنهم عملوا بكل السبل على استتباب السلام بين بعضهم البعض ."

"والأنباط شعب حساس ، وهم يميلون إلى التملك بدرجة بالغة حتى أنهم علانية يغرمون من يفرط في ممتلكاته ويكرمون من يعمل على زيادتها . ونظراً لأنه لا يتوفر لهم سوى القليل من العبيد فإن من يقوم بخدمتهم في أغلب الأحوال هم أقرباؤهم أو أنسابهم ، أو يخدم أحدهم الآخر أو يخدمون أنفسهم ، بل أن هذا العرف يمتد حتى إلى ملوكهم . وهم يعدون وجبات مشتركة معاً في جماعات من ثلاثين شخصاً ، وبكل مأدبة اثنتان من المطربات . ويقوم الملك بمباريات رائعة في الشرب ، ولكن ليس هناك من يشرب أكثر من أحد عشر كأساً وفي كل مرة يستعمل كأساً ذهبية مختلفة . والملك ديمقراطي للغاية حتى أنه - إضافة إلى القيام بخدمة نفسه - يقوم أحياناً بخدمة الباقيين بالمقابل . وهو غالباً ما يقدم تقريراً عن شؤون حكمه إلى مجمع شعبي (مجلس نواب) وأحياناً ما يضع أسلوب حياته الشخصية للمراجعة . ورغم أن مساكنهم تستخدم في بنائها الأحجار إلا أنها غالية الثمن ، مع ذلك فإن المدن غير مسورة حيث تنعم بالسلام . وأغلب هذه البلاد توجد بها الثمار بوفرة فيما عدا الزيتون الذي يستخدمون بدلاً منه زيت السمسم ، والأغنام (لديهم) ذات صوف أبيض كما أن الثيران (لديهم) ذات حجم كبير ، غير أن هذه البلاد لا تنتج خيولاً لكن الجمال توفر لهم نفس الخدمة التي يحتاجونها بدلاً من الخيول . وحين يخرجون لا يرتدون تنورة

وإنما يرتدون حزاماً حول خصرتهم وخفأ في إقدامهم ، وينطبق ذلك حتى على الملوك أنفسهم ولو أن اللون الخاص بهم هو الأرجواني . وهناك بعض الأشياء تستورد بالكامل من البلاد الأخرى في حين أن البعض الآخر ليس كذلك على الأخص في حالة المنتجات المحلية كما هي الحال - على سبيل المثال - بالنسبة للذهب والفضة ومعظم العطور ، في حين أن النحاس والحديد وكذلك الميعة والزعفران والأشغال المزخرفة واللوحات المرسومة والأشغال المسبوكة ليست من بين ما ينتج في هذه البلاد . ونظرتهم إلى جثث الموتى هي نفسها نظرتهم إلى الروث حتى أن هيراكلييتوس يقول " الجثث أكثر قابلية للرمي من الروث " ولهذا فإنهم يدفنون موتاهم - بل وحتى ملوكهم - بجانب أكوام الروث . وهم يعبدون الشمس ويبنون لها مذبحاً في أعلى المسكن يسكبون عليه الخمر يومياً تكريماً لها ويحرقون البخور .

طبعاً بعض ما جاء في هذا النص غير صحيح و مع ذلك فيه تفاصيل مقنعة لجعل تلك الرواية قيمة . خاصة وأنه يجب أن نلاحظ أن الأنباط كانوا قبل ذلك الوقت مستقرين تماماً . مع العلم بأن رواية سترابو تعكس فترة متأخرة .

وأول الدلائل التاريخية المحددة التي تشير لتصرف الأنباط كجماعة فيما يتعلق بالأحداث التاريخية العائدة إلى القرن الرابع قبل الميلاد ، ولو أنه يجدر بنا إلا ننسى أن الدلائل التي تشير إلى العرب ترجع إلى أبعد من ذلك كثيراً حيث يشار إليهم كثيراً في النصوص الآشورية والبابلية التي يرجع تاريخها إلى القرن التاسع قبل الميلاد و مع ذلك فإن الأنباط في حد ذاتهم لعبوا دوراً رئيسياً منذ حوالي القرن الرابع قبل الميلاد ففي سنة ٣١٢ واجههم أنتيجونوس مونوفثالوس وهو أحد القواد الذين استولوا على جزء من إمبراطورية الإسكندر بعد وفاته . وعلى حد قول ديودوروس سيكولوس ، فإن أنتيجونوس أرسل واحداً من ضباطه الذي قام بمهاجمة الأنباط واستولى على غنائم في شكل بخور ومر وخمسائة طالين (وحدة وزن أو نقد قديمة) من الفضة . ولعل ذلك كان - جزئياً - تحركاً إستراتيجياً قبل غزو مصر . وبعد هجوم مفاجئ من قبل الإغريق تمكن الأنباط من مطاردتهم والحاق الهزيمة بهم . ثم كتبوا خطاباً بالآرامية إلى أنتيجونوس ذو سمة تصالحية . وهذا له دلالة هامة إذ يبين أن الأنباط حتى في هذه المرحلة المبكرة كانوا متعلمين إلى حد ما وأنهم كانوا يستخدمون بالفعل الكتابة واللغة الآرامية . وبعد تهدة الأنباط بالشعور بالأمن الذي يشوبه بعض الشك قام أنتيجونوس

بإرسال أبنه ديمتريوس في حملة أخرى ضدهم . غير أن ديمتريوس لم يحقق سوى نجاحاً ضئيلاً وعندها أقنعه زعماء الأنباط بعقد معاهدة معهم ومع أن ذلك لم يسر أنتيجونوس فإنه من الواضح أنه قد قبل تلك المعاهدة وفي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد نجد أن الأنباط كانوا يتعاملون مع زعماء اليهود - المكابيين - وقد ورد ذكر ذلك عدة مرات في كتبهم الإغريقية ، لكن الروايات التي وردت فيها ليست مؤكدة .

أما الذي أعطى الكثير من المعلومات عن علاقات الأنباط باليهود الذين كانوا ينافسونهم على السيطرة على الأراضي السلوقية القديمة في المنطقة فهو المؤرخ اليهودي جوزيفوس (٣٧ ق . م . ، ٩٧ م) في كتابه " آثار اليهود " وفيه بدأنا نجد تفاصيل أسماء ملوك الأنباط . من ذلك أن الإسكندر جانيوس (١٠٣ - ٧٦ ق . م .) الذي قام في سنة ٩٢ ق . م . بمهاجمة الملك النبطي عبادة الأول (٩٦ - ٨٧ ق . م .) واضطر إلى تسليم أراضي الضفة . وفي أعقاب هزيمة الحاكم السلوقي أنتيوكوس دايونيسوس الثاني عشر (٨٧ - ٤ ق . م .) على يد الملك النبطي الحارثة الثالث (٨٧ - ٦٢ ق . م .) في سنة ٨٧ قبل الميلاد وجد الإسكندر جانيوس نفسه واقعاً تحت هجوم الأنباط . وعند وفاة أنتيوكوس مد الحارثة الثالث مملكته حتى شملت مدينة دمشق لمدة ١٥ سنة .

ويلاحظ أن النقوش النبطية بدأت تلعب دوراً في إعادة صياغة التاريخ منذ بداية القرن الأول قبل الميلاد . فهناك نقش من إليوسا في النقب ربما يشير إلى الحارثة الأول ، ويرجع أقدم نقش مؤرخ في البتراء إلى السنة الأولى لحكم عبادة الأول . بذلك فإننا ندخل فترة بها مصادر وفيرة بما يكفي لكي نتمكن من إعادة صياغة جدول مفصل لملوك الأنباط .

١٩٦ ق . م .	الحارثة الأول
١٢٠ - ٩٦ ق . م .	الحارثة الثاني
٩٦ - ٨٧ ق . م .	عبادة الأول
٨٧ ق . م .	ربال الأول
٨٧ - ٦٢ ق . م .	الحارثة الثالث محب اليونان
٦٢ - ٥٩ ق . م .	عبادة الثاني
٥٩ - ٣٠ ق . م .	مالك الأول
٣٠ - ٩ ق . م .	عبادة الثالث

الحارثة الرابع محب شعبه	٩ ق م . - ٤٠ م
مالك الثاني	٤٠ - ٧٠ م
ربال الثاني	٧٠ - ١٠٦ م

وهناك مصادر أخرى مثل كتاب سترابو "الجغرافيا" - الذي ذكر من قبل - تشير إلى أن ملوك الأنباط قد انتهجوا أسلوب حكم ديمقراطي وثيق بالشعب مثل نظام الشيوخ التقليدي ومع ذلك فإن ملوك الأنباط قد تمتعوا أيضاً بنجاحات باهرة في سياسة القوة خلال ذلك الوقت لا سيما تحت حكم الحارثة الثالث ٨٧ - ٦٢ ق م .) والحارثة الرابع (٩ ق م . - ٤٠ م) . وكما رأينا من قبل فإن الحارثة الأول مد مملكته لتضم دمشق ذاتها لفترة قصيرة بدأت في سنة ٨٧ ق م . ، وفي سنة ٨٢ ق م . ، هاجم الدولة اليهودية التي كانت مصدراً مستمراً للمتاعب للأنباط .

وفي أثناء الحرب الأهلية اليهودية سنة ٦٧ ق م . عقد الأنباط حلفاً إستراتيجياً مع حزب هيركانوس (الذي أصبح فيما بعد هيركانوس الثاني) (٦٣ - ٤٠ ق م .) بأمل استعادة الأراضي النبطية الواقعة شرق الأردن والتي كانت قد وقعت تحت سيطرة اليهود . غير أن هذا الحلف لم ينجح . وقد هزم هيركانوس في بادئ الأمر ثم ساندته الرومان بعد ذلك (سكاوروس قائد بومبي وكذلك بومبي نفسه مع العلم بأن الرومان كانوا قد استولوا على دمشق في سنة ٦٥ ق م .) من ثم فإن الأنباط أجبروا على عقد معاهدة مع الرومان الذين كانوا يحقدون على الأنباط حقداً واضحاً بسبب نفوذهم التجاري .

بعد ذلك وفي سنة ٣١ قبل الميلاد قام حاكم اليهود ، هيرود العظيم بتحريض من أنطونيوس (الذي حثته كليوباترا التي كانت قد أعطيت بعض الأراضي النبطية ربما بخليج العقبة) - قام بغزو الأراضي النبطية في شمال سورية / جنوب الأردن ، وبعد بعض الانتكاسات وبمساعدة الرومان أقام دويلة يهودية بعرض الأردن تحوطها الأراضي الأجنبية . وعلى حد قول جوزيفوس فإن هيرود أصبح حامي الأمة النبطية .

وقد حاول سليوس - الذي سمي في أحد النقوش النبطية "أخا" للملك (عبادة الثالث) ولو أنه كان بالفعل وزيره والشخصية المحورية في الحملة الفاشلة التي شنّها إيليس جالوس في سنة ٢٤ ق م . - حاول أن يتزوج سالومي - أخت هيرود - أملاً في تحقيق طموحاته السياسية . غير أن إخفاقه في ذلك (لأسباب

دينية) أدى ثنائية إلى نزاع بين اليهود والأنباط وشجع الأنباط المتمردين ضد هيرود الذي حاول تغريمهم . وبعد وفاة عبادة الثالث حاول سليوس أن يستحوذ على العرش لنفسه ولكن الحارثة الرابع (٩ ق . م . - ٤٠ م) هو الذي خلف عبادة الثالث واعترفت به روما .

وجرت محاولات غير موفقة لحل مشكلة التنافس بين اليهود والأنباط عن طريق الزيجات الدبلوماسية ، حيث زوجت ابنة الحارثة (سعدت) لهيرود أنتيباس حاكم الجزء الرابع من الولاية (٤ ق . م . - ٣٩ م) ولكنه تخلى عنها في حوالي سنة ٢٧ م لصالح هيرودياس زوجة أخيه غير الشقيق . لكن الأميرة النبطية المتخلى عنها اكتشفت مؤامرة هيرود أنتيباس للتخلص منها وعملت على أن ترسل إلى ماكاربيوس على الحدود النبطية . بعد ذلك :

"استطاعت أن تبدأ رحلتها إلى الجزيرة العربية تنتقل من حاكم إلى آخر حيث وفروا لها وسيلة النقل . لذا فقد وصلت بسرعة إلى أبيها وأخبرته بما أزمع هيرود فعله " .

لذلك فقد قام الحارثة بمهاجمة هيرود أنتيباس وأوقع به هزيمة فادحة ، ولكن هذه العملية أثارت عدم رضى تيبيريوس ، ولم ينج الأنباط من اجتياح الرومان الشامل لهم إلا بموت تيبيريوس (٣٧ م) .

ورغم الضغط الروماني المتزايد ورغم أن هناك محاولة محتملة من جانب الرومان لقطع تولية الحكم (حوالي ١-٣ ق . م .) ، فإن تطوراً هاماً في الدولة النبطية (في الفترة التي نحن بصدها) حدثت تحت حكم الحارثة الرابع (٩ ق . م . - ٤٠ م) الذي استخدم لقب ر ح م ع م ه "محب شعبه" ولعله أراد أن يظهر بهذا اللقب شعوره القومي حيث أن الحارثة الثالث كان يسمى "محب الحضارة الإغريقية" ولعل هذا الملك هو الذي أدخل عبادة السلالة الحاكمة التي كان سلفه الملك عبادة مؤلفاً فيها . وأغلب المباني الهامة في البتراء (المسرح ، معبد قصر البنات وربما الخزنة ، إلخ) والمواقع النبطية الأخرى جاءت من هذه الفترة . إن أهم التطورات الحضارية على سبيل المثال في عبادة وبصرى جديرة بالذكر . وقد كان الاقتصاد اقتصاداً متنوعاً كما أن الزراعة تطورت من خلال التوسع في الري كاستجابة جزئية لتدهور طرق التجارة المتجهة للجنوب .

أما مالك الثاني (٤٠ - ٧٠ م) فالمعروف عنه قليل ، وقد أشير إليه في كتاب

البحر الإريتيري ويبدو أنه كان هناك بعض التدهور في الدولة أثناء حكمه .

وأما ربال الثاني (٧٠ - ١٠٦ م) الذي خلفه والذي ربما كان طفلاً عند تولية العرش فقد لقب بـ **دي أحيي وشي زب ع م ه** "الذي وهب الحياة والحرية لشعبه" واتسمت فترة حكمه بالسلام والرخاء على وجه العموم . ويبدو أنه قد تمكن بصفة مؤقتة من وقف تدهور قيمة مقدار الفضة بالعملات النبطية الذي ظل حدوثه مستمراً لمدة مائة عام . غير أنه توجد بعض الدلائل على تدهور النفوذ النبطي في الجنوب ، لا سيما في شمال شبه الجزيرة العربية وزيادة مقابلة في النشاط في الشمال في حوران . ويقال إن ربال نقل العاصمة إلى بصرى في سورية التي أصبحت في ذلك الوقت مركزاً رئيسياً .

لكن الصراع مع الرومان ظل يلوح في الأفق . وفي نهاية الأمر سنة ١٠٦ م ربما كنتيجة لاتجاه في تصرف معين يناقض مصالح سياسة تراجان الاستعمارية - ضمت البتراء والأراضي التابعة لها بدون اعتراض إلى الإقليم الروماني بالجزيرة العربية بمعرفة كورنيليوس بالما حاكم سورية وجعلت بصرى مركزاً إدارياً لها . وقد كان لذلك على الأقل ميزة إعادة توحيد كل الأراضي النبطية وبذلك بدأت حقبة حديثة في ٢٢ مارس سنة ١٠٦ م ، ولم يتسن لابن ربال الثاني - عبادة - الذي عرفناه من وثائق نهل هفر Nahal Hever أن يصبح ملكاً .

وبالنسبة لتاريخ الإقليم الروماني الجديد بالجزيرة العربية فلن تتم متابعتة في هذا المقام . ولكن يكفي أن نذكر أن اللغة اليونانية فيما يبدو أخذت دوراً أكثر أهمية رغم أن النبطية ظلت مستخدمة ، وذلك وفقاً لما تدل عليه نقوش مختلفة وارشيف باباثا Babatha وظلت البتراء مركزاً هاماً - بالتأكيد بالنسبة للشؤون القانونية - رغم أن بصرى كانت هي العاصمة ، ولم تنقطع سكنى المدينة التي كانت إحدى أجمل أثارها هي مقبرة سكستوس فلورنتينوس الحاكم في سنة ١٢٧ م . وفي نهاية الأمر أصبحت البتراء مركزاً مسيحياً هاماً.

التجارة النبطية

رغم أنه كانت لهم بعض المنتجات الخاصة بهم ، لا سيما القار ، فإن الرخاء الذي تمتعوا به كان يستند إلى الدور الحاسم الذي كانوا يلعبونه في طرق

التجارة البرية من جنوب الجزيرة العربية ومن مناطق الشرق البعيدة . وكانت طرق القوافل القديمة تمر عبر الحجاز إلى إقليم العقبة /البتراء ثم في اتجاه الغرب عبر المدن النبطية حتى غزة والعريش أو في اتجاه الشرق إلى دمشق ومنها إلى الساحل . وفي هذا الصدد يروي سترابو ما يلي :

"بالنسبة لشحنات العطور - فإنها تنقل من لوكي كومي (على البحر الأحمر) إلى البتراء، ومن هناك إلى رينوكولورا (العريش) التي تقع في فينيقيا بالقرب من مصر ، ثم من هناك إلى أناس آخرين" .

وفي موضع آخر يشير سترابو إلى الطريق الشرقي المباشر من البتراء إلى بابل . كذلك فإن ديودوروس سيكولوس أشار إلى تجارة الجرهائين والمعنيين في البتراء ، في حين ذكر بلييني (٧٩-٢٣ م) أنه "يلتقي في البتراء طريقان ، أحدهما من سورية إلى تدمر والآخر قادم من غزة" .

مع ذلك فقد كان النفوذ التجاري للأنباط معرضاً في جوهره للمخاطر بسبب احتمال نقل التجارة إلى طريقي البحر الأحمر/مصر وتدمر/الخليج العربي إلى داخل العالم الروماني . وقد أشار سترابو صراحة إلى ظهور أول هذين الطريقين كطريق بديل . ويمكن ربط ذلك بالروايات المتعلقة بتحول بعض الأنباط إلى القرصنة . أما ظهور الثاني فأدى إلى التدهور السريع للأنباط بعد سنة ١٠٦ م . وأما طريق البتراء/غزة فأخذ في التدهور منذ منتصف القرن الأول الميلادي .

مدائن صالح في هذا السياق

من الصعب جمع شتات تفاصيل تاريخ مدائن صالح - الحجر القديمة - . فنشاط ما قبل الأنباط بهذا الموقع أشارت إليه النقوش المعينية واللحيانية حيث من المحتمل أن المدينة كانت قد أقيمت أصلاً في أوائل الألف الأول قبل الميلاد . وربما حكمت فيما بعد من قبل الديدانين (من ديدان القديمة ، وهي مركز تجاري هام من القرن السادس قبل الميلاد يقع على مقربة من الخريبة بين مدائن صالح والعلا) ثم من قبل اللحيانيين ربما منذ القرن الرابع إلى القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد . وتشير بعض النقوش النبطية غير المؤرخة إلى أن زعيماً نبطياً محلياً من الشمال واسمه معسود قد اغتصب الحكم من المملكة اللحيانية . أما متى حدث ذلك فمع الأسف غير معروف (محتمل أن يكون

منتصف القرن الأول قبل الميلاد)، ولو أنه لم يحكم طويلاً .

كذلك ليس معروفاً متى دخلت مدائن صالح في المملكة النبطية . فبعض العلماء والباحثين يرون أن ذلك قد حدث في تاريخ ما في القرن الأول الميلادي . وأول إشارة خارجية مؤكدة إلى الأنباط في تلك المنطقة أتت من حكم عبادة الثالث وذكرها سترابو (حوالي ٦٤ ق . م .) الذي حكى عن زيارة إيليسوس جالوس في سنة ٢٤ ق . م . في أثناء حملته ضد السبئيين دفعه إليها أساساً رغبتة في سلب ثروتهم ، فذهب ينشد مساعدة الأنباط .

"لكن الإداري النبطي ساليوس الذي اعتاد الخيانة في كل شيء خدعه فأضله طريقه أو قاده إلى أماكن ليس بها طرقاً أو بمحاذاة شواطئ صخرية ليس بها مرافئ .. وبعد كثير من المحاولات والمشاق وصل بعد ١٤ يوماً إلى اللوكي كومي في أرض الأنباط ، وهي مركز تجاري كبير ، غير أنه فقد كثيراً من سفنه ، بعضها فقد تماماً ببهارتها وكل ما فيها بسبب صعوبة الإبحار لا بسبب مهاجمة أي عدو لها . وقد كان السبب في ذلك هو خيانة ساليوس الذي أخبره أنه لا يوجد أي طريق لأي جيش للتوجه إلى اللوكي كومي عن طريق البر . هذا مع أن التجارة المحمولة على الجمال تسافر جيئة وذهاباً من البتراء إلى ذلك المكان في يسر وأمان" .

وبعد مزيد من المشاق وصلت الحملة إلى أراضٍ في مكان ما بين مدائن صالح والمدينة يحكمها واحد من آل الحارثة أحد أقرباء عبادة ، ومن هناك توجهت جنوباً حيث لاقت فشلاً ذريعاً قبل العودة عن طريق الأراضي النبطية إلى ميناء إجرا النبطي (واضح أنه ليس إجرا/مدائن صالح) . أما بالنسبة لساليوس الذي لا بد أنه كان يعمل ما يشبه ملحقاً عسكرياً نبطياً قدمه الأنباط كجزء من معاهدة، فإنه انتهى بقطع رأسه في روما سنة ٦ ق . م . وكان الحارثة الثالث قد اتهم بالخيانة الذي ربما كان السبب الحقيقي في إعدامه .

وهكذا فإن إجرا قد أشير إليها على أنها جزء من مملكة عبادة الثالث النبطية. ويبدو أنه كان هناك حاكم نبطي يدعي الحارثة ينتمي إلى الأسرة المالكة يشرف على المنطقة الواقعة جنوب مدائن صالح في ذلك الوقت . ومن الواضح أن المدينة النبطية كانت مقامة عند حلول تاريخ نحت المقابر الأولى (أول مقبرة ذات تاريخ ترجع إلى السنة الأولى قبل أو بعد الميلاد) . وبذلك فإنه يبدو أن منتصف القرن الأول قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل هو التاريخ

الأرجح لسيطرة الأنباط عليها .

ومن الواضح أن مدائن صالح زادت أهميتها في أثناء حكم الحارثة الرابع (٩ ق م . - ٤٠ م) حتى أن عملات "الحجر" كانت تضرب أثناء فترة حكمه . وربما كانت هذه الزيادة في الأهمية مرتبطة بعاملين مكملين ، أولهما أن الحارثة كان واقعاً تحت ضغط روماني حاد أثناء حكم الإمبراطور أوغسطس ، ولقد أشرنا من قبل إلى احتمال قطع فترة حكمه في حوالي الفترة ٣ - ١ ق م . ، وربما كانت مدائن صالح قد طورت لتكون للانسحاب الإستراتيجي في حالة استيلاء الرومان على البتراء . وأول نقش مؤرخ على مقبرة يعود إلى السنة الأولى قبل أوبعد الميلاد ، وتعطي النصوص دلائل على وجود عدد كبير من كبار ضباط الجيش في ذلك الموقع في منتصف القرن الأول الميلادي . ويشير ذلك إلى مظهر عسكري قوي للموقع في ذلك الوقت ، الذي ربما كان بسبب جيش الاحتياط . وهناك دلائل على تواجد عسكري مماثل حول الجوف الواقع على الطرف الجنوبي لوادي السرحان والذي كان طريقاً نبطياً رئيسياً . أما ثاني العاملين فهو التطور الذي يمكن تفسيره على أنه انعكاس للنشاط المتزايد للمغيرين العرب (الصفويون والشموديون) في المنطقة في ذلك الحين الأمر الذي كان يهدد طرق التجارة .

ومن الجدير بالذكر أن آخر مقبرة مؤرخة يرجع تاريخها إلى ٧٤/٧٥ م ، وأن هناك عدة أمثلة لمقابر كان من الممكن أن تكون مقابر ضخمة لكنها تركت دون إكمالها . ومن المحتمل - ولو أنه لا توجد دلائل محددة - أن هذا يعكس تغيراً مفاجئاً في الموقف في مدائن صالح في ذلك الوقت . فربما يكون الوجود العسكري الضخم قد خفف فجأة لسبب إستراتيجي ، أو ربما كانت هناك حالة من عدم الاستقرار العسكري في منطقة مدائن صالح ذاتها . بل لعل الأنباط كانوا قد انسحبوا من المنطقة بعد سنة ٧٥ م ، ولو أنه يوجد وفقاً لما ذكره باورسوك - نقش مصدره مكان قريب من مدائن صالح يرجع تاريخه إلى آخر سنة لحكم ربال .

وبعد نهاية القرن الأول الميلادي بدأت معلوماتنا عن مدائن صالح تتلاشى ثانية . وقد ظلت النقوش تكتب بالنبطية بعد سنة ١٠٦ م حتى القرن الرابع حيث نجد ج . ستاركي يأخذ النقشيين المهمين في مدائن صالح كدليل لظهور مجلس شيوخ لمدينة الحجر في فترة السيطرة الرومانية للمنطقة . ومما قد يدعو إلى الاستغراب أن الرومان فيما يبدو اهتموا اهتماماً كبيراً بالمنطقة

الممتدة حتى إلى جنوب مدائن صالح حيث تكشف النقوش عن وجود عسكري روماني ، في حين أن هناك إلى الشمال في روافه نصاً خاصاً بأساس معبد يعود إلى سنة ٩/١٦٦ م يوضح ش ر ك ت م و د و وجود اتحاد قبلي ثمودي تحت الوصاية الرومانية . مع هذا فمن المحتمل أن السكان الثموديين المحليين كانت لهم درجة معقولة من الحرية في الواقع العملي . وثمة نقش ثنائي اللغة مكتوب بالنبطية والثمودية خاص بمقبرة في مدائن صالح ذاتها تاريخه ٢٦٧ م قد يدل على اختلاط السكان . ولدينا نص نبطي من القرن الرابع الميلادي يشير إلى عدنان بأنه زعيم "الحجر" ، الذي يفترض أنه حاكم عربي محلي رغم أن النص مؤرخ - شأنه شأن النص الثنائي اللغة - حسب النظام الروماني الذي كان يستعمل تقويمياً يقوم على أساس تاريخ إنشاء الإقليم الروماني .

الأهمية العسكرية والتجارية للحجر

توجد المستوطنات النبطية على طول الطرق التجارة النبطية ، في أماكن معينة مثل الجوف وبصرى . وهذا دليل على أهمية مدائن صالح / الحجر التي - مما يدعو للاستغراب - تعد أنأتى المستوطنات النبطية وأكثرها أهمية وأوفرها معلومات من حيث النقوش التي وجدت بها والتي تتميز بأنها أكثر كثافة حتى من نقوش البتراء ذاتها ، إذ يبلغ عددها حوالي ٤٠ نصاً يبلغ طول بعض هذه النقوش ١٤ سطراً ، وذلك إلى جانب مئات من النقوش .

ويبدو أن مدائن صالح كانت أبعد مستوطنة رئيسية بطريق التجارة النبطية الجنوبية ، ولو أن هناك بعض الدلائل تشير إلى وجود نبطي أبعد قليلاً إلى الجنوب ، وقد اكتشف نقش صخري نبطي في مكان منعزل في خيبر . فيما وراء العلا تقع أراضي أقوام عرب آخرين ، هم الثموديون واللحيانيون إلخ وأنه من غير المتصور أن حدودها كانت ثابتة تماماً . وحيث أن هناك دلائل على وجود ثمودي ولحياني في مدائن صالح ذاتها ، التي لا بد أنها كانت مركزاً حضارياً مزدهماً بالتجارة من كل مكان . أما فيما بعد مدائن صالح فليس هناك ما يدل على سيطرة الحاكم النبطي ، حيث تلاشت النقوش النبطية تماماً مع الابتعاد والاتجاه إلى الجنوب وانعدام وجود المقابر النبطية المميزة في مراكز أخرى مثل مركز ديدان على بعد ١٢ كم إلى الجنوب . أما شمال مدائن صالح فتوجد عدة مواقع سعودية بها أطلال نبطية ، ومنها البدع (مدين) وقرية وروافه وسكاكة وتيماء والجوف (انظر الخريطة أ) .

وكما لاحظنا من قبل (فيما ذكره سترابو) ، فإن المصادر القديمة تتحدث أيضاً عن ميناء نبطي على البحر الأحمر دعي بالإغريقية للوكي كومي "القرية البيضاء" التي ذكرت أيضاً في القرن الأول الميلادي في نص ملاحى بالإغريقية على النحو التالي :

"إلى يسار بيرينيس - بعد سفر مرحلتين أو ثلاثاً شرقاً من ميوس هورموس بعد الخليج الواقع إلى جانبه يوجد ميناء آخر له قلعة يسمى للوكي كومي (القرية البيضاء) وعبره يوجد طريق بري متجه إلى البتراء حيث مالك ملك الأنباط . وهذا الميناء أيضاً يؤدي بشكل ما وظيفة ميناء تجاري للمراكب الصغيرة التي تأتي إليه محملة بشحنات من الجزيرة العربية. لذلك السبب وعلى سبيل الأمان يرسل مسؤول جمارك لجباية ضريبة الربع على البضائع الواردة ، وذلك إلى جانب سرية من الجنود يقودها ضابط برتبة سنتوريون (أي قائد المائة عند الرومان) .

ولعله من الأفضل أن نفترض أن ما أشير إليه هو ضابط نبطي - لا روماني - على الرغم من لقبه حيث أن كل الألقاب العسكرية والإدارية النبطية أصلها إغريقي أو روماني ، كما أنه كان هناك بالفعل قائد مائة نبطي في مدائن صالح ذاتها . وتعطينا الإشارة إلى ضريبة الـ ٢٥٪ مثلاً موازياً للتعريف الضريبية التدمرية الشهيرة في سنة ١٢٧ م بل لقد كان في تدمر في أواخر القرن الثاني الميلادي مسؤول روماني لجباية ضريبة الربع . وبالنسبة للموقع الحقيقي لميناء لوكي كومي فلم يزل محل خلاف . فربما كان موقعه - على حد رأي قديم - بالقرب من "الوجه" ، لكن هذا المكان هو على الأرجح مكان ميناء إجرا الذي أشار إليه سترابو . وهناك من يزعم أن موقعه هو "ينبع" . كذلك ثمة مكان محتمل آخر هو "عينونة" إلى الشمال ، والرأي القائل بذلك وجد تأييداً قوياً في العصر الحالي كما أنه تؤيده دلائل الأبحاث الأثرية . وعلى أي حال فإن الأهمية التجارية لذلك المكان يؤكد أنها سترابو حيث ذكر أن "تجار القوافل يسافرون جيئة وذهاباً من البتراء إلى هذا المكان في يسر وأمان" . أخيراً فمن الواضح أن الملك الذي أشير إليه في النص المذكور أعلاه هو مالك الثاني (٤٠ - ٧٠ م) .

ويبدو أن من كان يحكم "الحجر" في القرن الأول الميلادي هو حاكم مسؤول عن الشؤون المدنية والعسكرية يمارس مسؤوليته نيابة عن المملكة النبطية التي كانت مقسمة إلى ولايات . ومن الملاحظ أن منصب الحاكم كان وراثياً في كثير من الأحيان . واعتماداً على الظروف المحلية (لكل ولاية) يوجد عدد من العاملين

العسكريين. ويبدو أن مدائن صالح كان بها الكثيرون من هؤلاء في الربيعين الثاني والثالث من القرن الأول الميلادي . ففي الحقيقة أن هناك نسبة كبيرة من المقابر ذات النقوش تنتمي لأولئك العاملين و من بين العاملين المذكورين كان منصب الوالي واضح الأهمية وربما كان شاغله هو كبير ضباط الجيش وكان يلتحق بالجيش المسؤولون الثانويون المعتادون مثل : الضباط من رتبة قائد المائة ، والأطباء ، والعرافين وغيرهم و كل هذه المناصب مذكورة في النقوش .

٤ - الديانة والموتى

الديانة

تعطي نقوش المقابر لمحات مختلفة عن الديانة بما في ذلك لمحة عن الغرامات الواجب دفعها إلى الآلهة أو التي يشير إليها بكل وضوح نقش موضوع في معبد الآله . هذه الحقيقة الأخيرة تنطوي على صلة وثيقة بين القانون والديانة ، ومن المحتمل أن كهنة المعبد كانوا الأوصياء على الاتفاقيات القانونية .

هناك أيضاً نقوش خاصة بالمسائل الدينية بالتحديد موجودة في منطقة الديوان بالموقع ، الذي أضاف إلى معرفتنا كثيراً من التفاصيل عن الديانة النبطية ، رغم أنه من البديهي الأخذ بعين الاعتبار كافة البيانات النبطية عند الكتابة عن الديانة النبطية .

وكان الآله الرئيسي الذي يعبد الأنباط هو ذوالشرى ، وهو اسم ربما يعني "ذلك الذي من شرى" وهو اسم المنطقة الجبلية الموجودة شرق البتراء. وفي بعض النصوص سمي "آله جي" وهو الاسم القديم لقرية وادي موسى بالقرب من البتراء. وقد أصبح آله الأسرة الحاكمة من ملوك الأنباط ، فسمي "ذوالشرى - آله مولانا (الملك)" "آله ربّال" إلخ . وقد اعتبر أنه يطابق آلهة أخرى مختلفة (أرأ آله بصرى ، وديونييسيوس زيوس) معنى أنهم كلهم نفس الآله . ويبدو أن سمته الأساسية كانت نجمية ، متمشياً مع المفاهيم للديانة العربية المبكرة ، حتى أن "ذوالشرى" كان معروفاً لدى ابن الكلبي كأحد آلهة العرب قبل الإسلام . ويسميه أحد نصوص مدائن صالح بأنه "الذي يفصل الليل عن النهار" ، وقد يكون في ذلك ما يربط بينه وبين عطارده هذا في حين يسميه نص آخر، أحدث تاريخاً ، "سيد العالم" .

وقد نلاحظ في هذه الألقاب ميلاً إلى تألية آله واحد كما يتضح من الاعتقاد بمطابقة آلهة أخرى له واعتبارهم جميعاً نفس الآله ولعل هذا الميل قاد في النهاية إلى توحيد الآلهة في آله واحد أو أنها كانت ستقود إليه ورغم أن الأنباط في القرن الأول الميلادي ظلوا بكل وضوح يعبدون آلهة أخرى أيضاً . ولدينا دلائل من مدائن صالح على هذه الآلهة الأخرى . اللات ، والعزى ومنتو (مناة) آلهة المصير الذي حطم وثنها الذي كان في القديد بين مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وقيس رفيق منتو ، وهبل (الذي عرف لابن الكلبي كآله مكة المكرمة قبل الإسلام) . من ناحية أخرى فإن الآلهة شيع القوم يعد حالة متميزة . فالاسم يبدو أنه يعني ذلك "الذي يرافق القوم" إذ كان آله تجارة القوافل والحياة البدوية وشبه البدوية الذي عبد كذلك لدى الصفويين . ويشير إلى ذلك نص هام من تدمر يبين أن نبطياً قد كرس مذبحين "لشيع القوم الآله الخير الكريم الذي لا يشرب النبيذ" . كذلك يظهر اسم هذا الآله في نقش قصير بجانب مشكاة موجودة قبالة الديوان في مدائن صالح .

ويجدر أن نذكر أيضاً السمة المميزة (في نطاق السياق السامي) لنقوش الملك النبطي عبادة الأول ، الذي دفن في النقب . وربما كان تأليهه راجعاً إلى المفاهيم الوطنية لعبادة الرابع وإلى التأثير الخارجي من مصر أو من الغرب الإغريقي الروماني .

ومع أنه لم يذكر في نصوص مقابر مدائن صالح سوى معبد واحد ب ي ت أ ، هو معبد قيشا (آخر ربما في غير ذلك المكان) ، فإن مشكاوات العبادة وهي سمة نبطية شائعة - كانت كثيرة العدد في منطقة جبل إثلث . وكثيراً من هذه المشكاوات تحتوي على صخور منحوتة على شكل أعمدة تمثل الآله ذو الشرى ، وأحياناً توجد أعمدة إضافية تمثل الآلهة المرتبطة به . استخدام الأعمدة التي غالباً ما تكون خالية من علامات أو سمات وجاهية هو تقليد مستخدم لدى الأنباط ، وهي تعكس تحريماً شاركهم فيه بصفة خاصة اليهود وفيما بعد المسلمين لعمل صور للآله في شكل بشري . بالمقابل استعمل الأنباط كتلة حجرية منحوتة بشكل مستو بسيط ليست مزخرفة لكي تمثل وجود الآله أو ربما تصور عرشه . وكانت قاعدة العرش م و ت ب عبدت باعتبارها موضوع للتبجيل . أما الآله ذاته فلا يمكن تصويره . مع ذلك فحقيقة أن هذه الأعمدة كانت تمثل الآله واضحة تماماً من بعض الحالات التي نحت فيها على الكتلة وجه رمزي أو على الأقل علامات لأعين وأنف . وهناك نماذج لذلك من تيماء تعود إلى

الفترة النبطية ، بينما توجد نماذج نبطية في الموقع المرتفع بجبل إثلرب وفي البتراء ، ومنها نموذج معبد به نقوش ويرمز إلى "العزى". ومع أنه كانت تعمل تماثيل للآلهة نتيجة للتأثير الإغريقي الروماني ، إلا أنه لا يوجد حتى الآن أي مثال لذلك في مدائن صالح .

كذلك فإن الأماكن المرتفعة الخاصة بطقوس القرابين والشائعة في البتراء تبدو أقل ظهوراً في مدائن صالح ولكن جوسين وسافنيك عينا واحداً من تلك الظواهر ، كما أن جبل إثلرب بأكمله يمكن اعتباره منطقة عبادة .

أما المآدب الدينية القائمة من جمعيات دينية فيبدو أنها كانت لها - مثلها في البتراء وتدمر - بعض الأهمية في مدائن صالح ، وذكرها الكتاب القدامى كخاصية مميزة للأنباط . وفي جبل إثلرب نقش قد يكون متعلقاً بذلك . بل أن الديوان ذاته مزود بمقاعد طويلة لهذا الغرض . وفي البتراء يبدو أن طقوس العبادة المتعلقة بالأشكال الثلاثية الميل كان لها ارتباط بالموتى وبالمملك المؤله عبادة ، أما في "الحجر" فهناك فصل واضح بين المقابر والمنطقة الدينية بالموقع والتي يقع فيها الديوان الذي هو موقع ثلاثي الميل .

وما زالت بعض الألفاظ المتعلقة بالعبادة باقية حتى الآن . فمشكاة العبادة في الديوان تسمى "مسجداً" بالآرامية ، وهو لفظ مماثل من الناحية اللغوية للفظ العربي "مسجد" الذي يعني حرفياً "مكان السجود" للآلهة . واحد القباب الكهنة هو أ ف ك ل أ الموجود في نصوص "الحجر" وغيرها وهو يطلق على رئيس الطائفة الدينية المحلي في مناطق معينة ، وهذا اللفظ معروف في بلاد الرافدين وجنوب شبه الجزيرة العربية وعند اللحيانيين ، ويبدو أنه يشير إلى نوع ما من "طارد الأرواح الشريرة" . ثمة لقب آخر هو ف ت و ر أ ربما يكون معناه "العراف" ولو أنه ربما يكون عرافاً عسكرياً يقدم المشورة حول جدوى المعارك والحملات الحربية مستنداً إلى الأحلام والتنجيم . هذا الافتراض بأن الأنباط استخدموا العرافة يؤكد ما رواه جوزيفوس عن أن العرافة (أو التنجيم) كانت تجري في عهد الحارثة الرابع سنة ٣٧ م حيث تنبأ العرافون بموت تيبيريوس .

وإذا نظرنا في الديانة النبطية ضمن ديانات الشرق الأدنى القديم فلعلنا نلاحظ أنها شيء مختلف عن القانون النبطي من حيث أن تراث بلاد الرافدين لم يتناولها إلى حد كبير . ولا يوجد لأي من الآلهة النبطية - ذو الشرى ، منوتو ،

هبل ، قيشا ، اللات ، العزى - أي نظير قريب في بلاد الرافدين . ويبدو أن "ذو الشرى" كان ألهاً محلياً لجنوب الأردن (جبال شرى) ، ومنوتو هي "مناة" التي ورد ذكرها في القرآن الكريم (كأحد الآلهة الوثنية للحجاز قبل الإسلام) ، وهبل كان أحد الآلهة القديمة لمكة المكرمة. بل أن آلهة سورية - مثل ، بعل شمين - لم يعبد إلا في الأقاليم النبطية الشمالية وبقيت أجنبية . ويبدو أن الديانة (والفنون) النبطية تدين إلى حد ما لجنوب الجزيرة العربية وتدين بالكثير إلى حضارة دينية متميزة لشمال غرب شبه الجزيرة العربية (التي توجد فيها بعض الملامح المشتركة مع اليهودية وإسرائيل القديمة) .

ولعل أطرف السمات من وجهة النظر المقارنة هو ظهور لفظ أف ك ل ل أ لنوع من الكهنة ، والذي يرجع في نهاية الأمر إلى لفظ أف ك ل ل أ الأكادي ولفظ أب ج ل السومري ، ومن المؤكد أنه لفظ انتشر وانتشاراً واسعاً حيث أنه وجد أيضاً في النقوش التدمرية والحضرية بمعنى مشابه . وهناك احتمال أن يكون قد دخل التراث النبطي من اللحيانية . أيضاً فإن ذلك اللفظ موجود أيضاً في جنوب الجزيرة العربية . وتوجد ألفاظ أخرى كثيرة أتت إلى النبطية من تراث ولغات الحجاز المحلية . ولكن نظراً لأن ذلك اللفظ قد انتشر أيضاً إلى الحضرية و التدمرية وربما أيضاً إلى الأكادية ، لذا فإن الطريق الذي وصل من خلاله يمكن أن يكون شمالياً بدرجة أكبر. ويلاحظ أن لفظ أف ك ل ل أ لم يزل موجوداً في عقول علماء التراث الإسلامي المتأخرين الذين يعني لهم هذا اللفظ مرتبة من مراتب الكاهن .

وفي بعض الحالات القليلة توجد تأثيرات من بلاد الرافدين متعلقة في الآلهة والألقاب الملكية . مثال ذلك أن الحارثة الرابع - كما رأينا من قبل - سمي ر ح م ع م ه "محب شعبه" وقد جرى التقليد على فهم ذلك على أنه صيغة آرامية للقب اليوناني الذي له نفس المعنى "المحب للشعب" . مع ذلك فإن له شبيه في لقب مردوك " ر أ م ن ش ش و " ولقب ملكي مشابه .

الموتى

رغم أننا سبق أن قدمنا وصفاً موجزاً لمقابر مدائن صالح ، فلعله من المفيد أن نلقي الضوء بعمومية أكثر على أهميتها .

ودون أن نختار في التخمينات العمومية المقارنة حول أهمية الدفن والمقابر

بالنسبة للساميين القدامى ، فلعلنا نلاحظ هذه الأهمية ببساطة باعتبارها حقيقة أهميتها التي وثقت بإسهاب في بلاد الرافدين وسورية ولدى الآراميين والإسرائيليين . ولو جاز لنا أن نأخذ أوجاريت في أواخر العصر البرونزي كمثال ، لظهرت ثلاث سمات أساسية هي نفسها سمات بارزة أيضاً في العقيدة النبطية . أولها أنه لا بد من معاملة الموتى باحترام وعناية ، من ثم أتبع الدفن في مدافن جميلة مشيدة من الحجر مع العلم بأن تلك المدافن في أوجاريت كانت تحت المنازل . ثانياً أنه في حين أن مسألة السعادة المحتملة للموتى العاديين لم تزل غير واضحة ، فإن الواضح أن الملوك تمتعوا بنوع من التأليه وكذلك الخلود . إلى جانب ذلك هناك عقيدة الأكل والشرب مع الموتى في مودة هي التي تبقى ذكرهم حية .

و بين الأنباط - كما رأينا - لعبت العناصر الثلاثة دوراً بارزاً . فقد رأينا المقابر والملوك المؤلهين و المآدب الطقوسية للموتى . و حرمة المقابر تكاد تكون غنية عن البيان ، ولكنها في حالة المقابر ذات النقوش تكون واضحة . فاللعنات والعقوبات الأخرى تتهدد من ينتهك المقبرة بطريقة غير ملائمة . ويرتبط ذلك بكل تأكيد بأساس العقيدة السامية التي تهتم بالدفن الصحيح .

ومن الملاحظ أنه حتى في تلك المصادر المبكرة الأولى كتلك المتعلقة بأوجاريت كانت العبارات التي تنم عن لطف التعبير عن الموتى أمراً شائعاً . فالنصوص الآرامية المتأخرة تشير إلى عقيدة جلية للغاية هي أن المقبرة هي "المسكن الأبدي" ، وهي ب ي ت ع ل م أ في التدمرية والسريانية المبكرة . نفس العبارة وجدت أيضاً في نقش نبطي ، وكذلك في إحدى برديات Nahal Hever . وقد يكون ذلك التعبير مقتبساً من المصريين ، كما أن له ما يماثله في التوراة العبرية . وفي النقوش التي تناولناها في هذه الدراسة نجد تعبيرات من هذا النوع مثل ح ل ف م و ت "تغير الموت" الذي يحدث لشخص ما ويعني أنه "مات" (H9:6) ، و أون أ أي "الدار" (تعبيراً عن "المقبرة" H25:1) . وقد شهدت الآرامية المتأخرة بالتأكيد ازدهار الاهتمام والرعاية بالموتى . ففي تدمر والقدس وإودسا ونباطيا تمثل المقابر ونقوشها نوعاً أدبياً أو فنياً محدداً وهاماً .

كذلك فإن الكلمة النبطية ن ف ش وهو عبارة عن شكل هرمي منحوت في الصخر - كان يرمز إلى وجود الفرد الميت ، وذلك بدلاً من التمثال أو التمثال النصفي مما هو شائع في تدمر . يقودنا هذا إلى السمة الغامضة المتمثلة في

عدم وجود النقوش بصفة عامة في المقابر العديدة في البتراء ذاتها باستثناء المقبرة التركمانية (انظر الفصل الرابع) . ويزعم م . غافليكوفسكي أنه كان هناك حظر على وضع الأسماء على خارج المقابر بسبب القدسية القديمة للموقع . من هنا فإنه حتى المقبرة التركمانية لا تحوى أي أسماء . مع ذلك فيلزم توخي الحذر قبل أن نخلص إلى مثل هذا الاستنتاج . فالبتراء بها نقوش هامة تحوى أسماء شخصية في داخل المقابر (وهي معروفة لدى غافليكوفسكي) وخارجها معاً (كما هو الحال في نقش مقبرة هامة في منطقة السيق الخارجية) ، لذا فإن أي مبدأ ديني تنطوي عليه هذه الأمور لابد أن يكون أكثر تعقيداً مما يفترضه غافليكوفسكي . وهناك نقاط اتصال بين عادات الدفن النبطية وتلك الخاصة باليهودية المعاصرة . فالنقوش اليهودية المعاصرة تحوي في أحيان كثيرة عبارات مماثلة لتلك التي في النصوص النبطية . كذلك فإن دلائل استخدام الدفن الثاني تمثل نقطة أخرى مشتركة بينهما .

ولاشك أن پ . سي . هاموند على حق في قوله إن الأنباط كانت لهم "رؤية متطورة عن الآخرة" ولكن كيف كان الأنباط يرون هذه الحياة الآخرة فغير معروف لنا . وقد أوضح المفكرون الدينيون في اليهودية المتأخرة وفي التراث المسيحي (وبعد ذلك بالطبع في الإسلام) هذه المسألة ، ويميل العلماء والباحثون بصفة عامة إلى الاعتقاد بأن ذلك هو نتيجة لتأثيرات غير سامية . مع ذلك فإن بذور هذه العقائد الأحدث تاريخاً كانت موجودة بالفعل في المعتقدات القديمة عن الملوك المؤلهين .

٥ - المجتمع والقانون

المجتمع

إن الكثير من معرفتنا بالمجتمع النبطي جاء من المصادر الإغريقية التي أشير إليها سابقاً . ومع ذلك فلا يمكن اعتبارها دائماً مصادر موثوقاً بها للغاية . فيبدو أنه من المؤكد - على سبيل المثال - أن الثقافة السياسية "الديمقراطية" التي وصفتها هذه المصادر مبالغ فيها . ولحسن الحظ أن نقوش المقابر - ولعل ذلك يدعو للاستغراب - تزخر بالكثير من المعلومات عن تفاصيل الحياة خارج نطاق مجال الدفن . غير المعلومات المتعلقة بالقانون وكثيراً ما تكشف نواحي بنية الأسرة والإرث . ففي إحدى المقابر كتب صاحبها في نقشه أنه لا يريد من

العنصر النسائي في العائلة أن ينتهي إلى احتلال المقبرة برمتها ، في حين حدد آخرون الأجزاء التي تشغلها في المقبرة كل قسم من أقسام العائلة .

وكثير من المقابر ذات النقوش بنتها نساء لأنفسهن ولبناتهن . بهذا يتضح أنه كانت للنساء استقلالية قانونية ، وكان باستطاعتهم تملك أشياء خاصة بهن. وفي الحقيقة أن النساء لعبن دوراً بارزاً في هذه الممالك الشرقية، ولعل زنوبيا التدمرية هي أشهر مثال لذلك ، لكن هناك دلائل كثيرة من هذا النوع أيضاً في شمال الجزيرة العربية من العصور الآشورية والبابلية .

وتعكس نقوش المقابر وجود طبقة عليا عسكرية - إدارية في مجتمع الحجر . وبالنسبة لبنية الجيش النبطي فإنها ليست مفهومة كما ينبغي . فمنصب "الإستراتيجوس" الذي ورد في كثير من النصوص ربما كان متعلقاً بإداري أو حاكم محلي وربما يكون أيضاً مسؤولاً عسكرياً و من ثم فلا بد أنه كان يتصرف كإداري مدني عند تلقي الغرامات . وكما ذكرنا من قبل هناك أيضاً دلائل على أن ذلك المنصب كان وراثياً .

وتشير عدة تفاصيل في نقوش المقابر إلى أنه كان هناك عنصر أجنبي ملموس في المستعمرة النبطية مدائن صالح . فالتيمائيون ذكروا مرات عديدة في حين أنه من بين المقابر مقبرة IGN12 أنشأت بواسطة أحد معتنقي اليهودية وهناك أيضاً دلائل أخرى على وجود اليهود في الموقع تجسدها النقوش العبرية ، والأسماء الشخصية التي يمكن أن تكون يهودية أيضاً . وإذا كان للأرشيف الذي وجد فيما عرف بكهف الرسائل في نهل هفر (Nahal Hever) على الجانب الغربي للبحر الميت أي دليل فإنه يدل على وجود اتصال وثيق على المستويين التجاري والأسري بين الأنباط واليهود .

القانون

جاءت الشهادة على ارتفاع مستوى النظام القانوني النبطي بشكل غير مباشر من سترابو الذي نقل عن أثينودورس الذي أقام في مدينة البتراء والذي درج على وصف حكومتها بكل إعجاب وتقدير ، إذ قال إنه وجد كثيرين من الرومان وغيرهم من الأجانب الآخرين يقيمون فيها ، ورأى الأجانب منغمسين في إقامة الدعاوى القضائية سواء فيما بين بعضهم البعض أو بينهم وبين الأهالي المحليين . أما الشهادة المباشرة فجاءت من أرشيف نهل هفر

(Nahal Hever) التي يرجع تاريخها إلى فترة المملكة النبطية منها أربع وثائق تعود إلى فترة حكم ربال الثاني ولو أنها حفظت على أنها وثائق تخص الفترة الرومانية التي يرجع إليها تاريخ كثير من الوثائق الفردية . وتشهد الوثائق الأولى على استمرار سريان القانون النبطي عبر هذا الفاصل . ومؤخراً نشرت كسرة يظهر عليها نقش يشير إلى ارتباط القانون الديني بالمعبد .

وما عدا ذلك ، فإن مصادرنا الأساسية عن القانون النبطي هي نقوش المقابر حيث أنها سجلت على أساس أنها نصوص قانونية تحتوي على شروط استخدام المقبرة وتوزيعها ووراثتها بالإضافة إلى الغرامات المتعلقة الناتجة عن سوء استخدام المقبرة ، وهذه النصوص موجودة فيما يقرب من ثلاثين حالة أو نحو ذلك وكلها من مدائن صالح أما الذي وجد في البتراء فضئيل للغاية ولكن يوجد من بينها نقش واحد مهم وهو من هذا النوع القانوني وقد وجد نقش آخر على مقبرة في مادبا في الأردن ويشير أحد هذه النصوص بالتحديد إلى أن نسخة من النص (ربما النص الذي كتبت حروفه بطريقة غائرة) وضعت في معبد أحد آلهة الأنباط ، وهذا صحيحاً فيما يبدو في كل الحالات . من هذا النوع ، ذكر سجل مماثل في أحد نقوش مقابر تدمر، في حين ذكرت في نقش آخر أسماء الشهود على الوثيقة القانونية و بهذا فإن الوثائق المنقوشة على واجهات المقابر كانت نصوصاً قانونية لا مجرد تحذيرات من انتهاكات المقبرة . والجدير بالذكر أن الكلمة النبطية الخاصة بالقانون هي ن س ح ت أ وترتبط أصلاً بالكلمة الأكادية ن س خ و التي تعني "سجلاً حكومياً" و من المحتمل أيضاً أن نسخاً من هذه الوثائق حفظت في سجل مدني ويتأكد ذلك من تسلم "الإستراتيجوس" الغرامات المرتبطة بها .

ويوجد في هذه النقوش صيغ قانونية عرفت في البابلية والأشورية الحديثتين وكذلك في بردي الفيلة . والفعل النبطي م ش ك ن "يرهن" يشابه الفعل الأكادي م ش ك ن و وهناك بديل أقل شيوعاً يستخدم للتعبير عن ذلك هو ر ه ن (رهن) الذي ربما يكون كلمة محلية والذي يوجد لفظ عربي مشابه له ، حيث كان الأنباط يتحدثون نوعاً من العربية في حياتهم اليومية وتغيير نقش المقبرة من الأعمال الأخرى المحظورة ، ويستخدم لذلك فعلاً ، أحدهما ع ي ر من الفعل العربي "غير" والآخر آرامي هو ش ن أ .

ثمة ألفاظ قانونية لها أصداء في أماكن أخرى من بينها "السعر الكامل" وهو لفظ آرامي للكلمة الأكادية ك س ف و ج م م و ر الذي يستخدم في وثائق

البيع. وفي مكان آخر نجد ألفاظاً مثل ت ق ف الذي قد يكون معادلاً للفظ الأكادي دن ن ت و الذي يعني "أوراق قانونية" كما أنه يبدو أن لفظ ل ا ر ش ش ي رمز إلى أ ل إ ش ش ل ل ط ومعناها "لن تكون لدية سلطة كاملة".

مع أنه هناك في أحيان كثيرة توجد دلائل على أن هذه الألفاظ المستعارة قد ظهرت في الصيغ القانونية الآرامية مبكراً كوثائق الفيلة التي تعود للفترة الفارسية .

٦ - نقوش المقابر

كما أشرنا من قبل ، فإنه منذ أن نشر كتاب جوسين وسافنيك لم تلق نقوش المقابر سوى القليل جداً من الدراسة ، وحتى تلك الدراسات التي تناولتها لم تقدم سوى القليل من التعليق على محتوى تلك النقوش ومن تلك الدراسات القليلة دراسة م . ليدزبارسكي الذي تناول فيها الظاهرة العامة لنقوش الدفن السامية . ورغم انقضاء ما يقرب من مائة سنة على تلك الدراسة فإن تعليقاته وآراءه حول خصائص نقوش "الحجر" لم تزل بالغة القيمة والأهمية . وهناك عدة نقاط لاحظ فيها ليدزبارسكي الخاصية المميزة في داخل التراث السامي لتلك النقوش . أولاً، يلاحظ أن معظم نقوشنا قد أعدت بمعرفة الشخص الرئيسي الذي سيدفن في المقبرة لا بواسطة أقاربه ، رغم أنه يوجد شكل مماثل لذلك وشائع إلى حد كبير في السريانية المبكرة .

ولقد ذكرنا من قبل أن هناك خمسة وثلاثين مقبرة تحمل نقوشاً منها ثلاثة مقابر بها نقش داخلي و نقش خارجي ومنها ثمانية وعشرون مقبرة عليها نقوش مؤرخة ، (و المقبرة H11 النقش الداخلي مؤرخ أيضاً) أما السبعة النقوش الأخرى فأربعة تشتمل على تواريخ غير واضحة أو غير كاملة ، بينما الثلاثة الباقية غير مؤرخة (H15, 21, 23) ومن بين النقوش المسجلة على واجهة المقابر يوجد اثنان فقط غير محاطين بإطارات زخرفية (H14, 34) (باستثناء المقبرة H15 التي يشتمل نقشها على اسم البناء) . وهذه الإطارات الزخرفية تكون في العادة مشكلة بواسطة حافة ناتئة (مثال ذلك H21) ولو أنه في بعض الأحيان يكون الموضع الذي يكتب فيه النقش أكبر قليلاً من مجرد فجوة . كذلك تأخذ هذه الإطارات الزخرفية أحياناً شكل tabula ansata (H6) 25 أما المقبرة H12 فيها "أذنان" والنقوش الخارجية موضوعة في كل الحالات عدا واحدة (H14) على الواجهة أعلى الباب وغالباً ما تكون على ارتفاع كبير،

وفي حالة واحدة (H9) كان النقش محجوباً بواسطة زخرفة لحيوان أسطوري وتتفاوت الإطارات الزخرفية في الأبعاد من ٣٧ سم إلى ٩١ سم عرضاً ومن ٢٥ إلى ٧٠ سم ارتفاعاً . ومتوسط مقاس الإطار يبلغ حوالى ٦٠ × ٤٥ سم .

وتتفاوت جودة خطوط النقوش تفاوتاً كبيراً (انظر الفصل الثاني والمناقشة المتعلقة بكل نقش) . ففي قليل من الحالات توجد علامات للسطور (H8, 30) . لكن الانطباع العام الذي تعطيه هو الافتقار إلى التخطيط فالنقوش كثيراً ما تكون غير مقروءة وذلك لأنها منثورة على السطح المحيط بها وفي حالة واحدة تبدو مدهشة من وجهة نظر القاريء المعاصري حيث يظهر الحد للإطار الزخرفي متقطعاً لئلا يتيح للحروف أن تمتد خارجه (H9) . غير أن هذه المسائل لا بد أن ينظر فيها على ضوء احتمال أن النحات كان ينسخ من أصل بردي (نسخة من الوثيقة القانونية ذاتها) في حين أن مقاس الإطار ربما كان قد حدده البناء الذي صمم المقبرة قبل أن يعرف حجم النقش . وفي حالة واحدة على الأقل (H14) سجل نقش على مقبرة في وقت لاحق حيث صممت دون أن يوضع في الحسبان كتابة أي نقش عليها .

يتفاوت فيها حجم الحرف في مختلف أجزاء النص يكون تغيير الحجم متفقاً مع الأجزاء الجديدة في النص ويتضح ذلك في النص (H31) .

هناك أيضاً تنوع كبير في النقوش فيما يخص القيود المتعلقة باستخدام المقبرة وعدم السماح بتحويل ملكيتها لشخص آخر ، والصيغة المستخدمة من النقوش في هذا الصدد كما يلي :

١ - تلك التي تنص على أن المقبرة (أو المشكاة) بنيت بمعرفة فلان أو فلانة وفلانة لنفسه/لنفسها أو لنفسيهما (حوالى ٢٢ نقشاً - بعضها غير واضح - مثل H6,18) .

٢ - نقوش تبين الملكية ولكن دون ذكر شيء عن منشأ المقبرة (حوالى ١١) .

٣ - تلك النقوش التي تتضمن أن المقبرة أقيمت بمعرفة فلان لأجل فلانة (H13, 24, 29) .

٤ - النقوش التي تنص على إهداء المقبرة من فلان إلى فلانة (H27, 34) مع

العلم بأن الثانية (H34) تذكر الملكية أيضاً مثلما في النوع الثاني أعلاه (الفقره رقم ٢) .

وهذه الأنواع الأربعة من النقوش كلها قانونية أساساً وكذلك الحال بالنسبة للنقوش الأخرى فيما عدا (H15) (المحتوى على اسم البناء فقط) و (H21) الذي سجل فيه اسم فقط حتى يشتهر في أن له نفس نوع الدلالة القانونية التي في بقية النقوش الأخرى .

ورغم أوجه التشابه في المواقف الأساسية تجاه الموتى ، فإن الاختلافات بين نصوصنا وبين نقوش الدفن الآرامية المعاصرة أوضح كثيراً من أوجه التشابه و يرجع ذلك جزئياً إلى المحتوى ذي الصيغة القانونية لأغلب نصوص "الحجر" ، ولكن يجدر بالذكر أيضاً أن الصيغة الأكثر شيوعاً في نصوص "الحجر" هي "هذه هي المقبرة التي أنشأها فلان" نادرة إلى حد ما في نقوش المقابر السريانية والآرامية اليهودية وهكذا فإن الصيغة الشائعة في مجموعة النقوش السريانية المبكرة التي تحوي عدة نقوش مقابر هي "أنا فلان أنشأت لنفسي هذه المقبرة" مع أن عبارة "هذه هي مقبرة فلان" موجودة أيضاً . وبين الأمثلة اللحيانية القليلة المماثلة نجد صيغة مشابهة للصيغة النبطية "فلان ابن فلان ابن فلان بنى هذه المقبرة (ك ف ر) وهذه المقبرة بأكملها تخصه هو وورثته . وقد تملك غرفتي الدفن في السنة الثانية لتلمي ابن هنواس" وتوجد صيغ بالتردمرية مماثلة للصيغ النبطية (مثل فلان أقام هذه المقبرة) وقد يبين التاريخ أيضاً في بعض الأحيان . والناحية القانونية أشد وضوحاً في النقوش التدمرية حتى أن بعض نقوش المقابر التدمرية تسجل التخلي عن مقبرة أو جزء من مقبرة واحد نقوش "الحجر" يمكن أن يعتبر أنه يسجل تخلياً من هذا النوع . وتتضح مسألة أن قانونية النصوص ومشايتها للصكوك العقارية بصفة خاصة من الحالات القليلة التي تبين تفاصيل محددة عمن سيحق له استخدام أي جزء من أجزاء المقبرة وفي هذا الصدد توجد أيضاً صيغة مماثلة في أحد نقوش المقابر التدمرية يرجع تاريخه إلى سنة ٢١٤ ميلادية .

هناك خاصية أخرى لنقوش الحجر هي تسجيل الأعمال المحظورة (البيع ، الرهن ، التنازل ... إلخ) بعبارات تحذيرية ومثل هذه التحذيرات وجدت أيضاً في نقوش المدافن من مختلف المصادر كذلك فإن التحذيرات من سوء استخدام المقبرة أو انتهاكها في شكل لعنات هي أيضاً خاصية شائعة مشتركة فيها . غير أن نصوص "الحجر" تشتمل على مسائل غير عادية فيما يتعلق بالمفهوم

السامي خاصة مسألة عدم الاقتصار على اللعنات بل وأيضاً فرض غرامات على مرتكب المحذور .

وتفاصيل هذه الغرامات موجودة على ثلاثين نقشاً ، أحدها نقش داخلي و بديهي أن صفتة القانونية لا تقل عن غيره (H11) . ويمتد النطاق الزمني للمقابر المؤرخة والتي ذكرت فيها الغرامات لتشمل الفترة من السنة الأولى قبل الميلاد وبعده حتى ٧٢/٧١ م . ولا توجد أي دلائل على أي تحول في استخدام الغرامات في خلال تلك الفترة ، ولا على أي تفاوت كبير في حجم تلك الغرامات، سوى نقش واحد حددت فيه غرامة كبيرة جداً (H19) يرجع تاريخها إلى ٢٧/٢٦ م) و يمكن تفسير ذلك على أساس اهتمام صاحبها الشديد بتحديد حدود استخدام مقبرته ويبدو أنه شديد العصبية مقارنة بمعظم الآخرين و من ناحية أخرى هناك نقشان (H12, 36) يتضمنان نوعاً من الغرامات أقل (ما تضمنه النقش H12 ٢٠٠ دراهما كما تضمن النقش H36 ٥٠٠ + ٥٠٠) بالنسبة لمحتوى النقش الثاني فإنه يتفق مع عدة حالات أخرى وبالنسبة للنقش الأول فإن الغرامة القليلة لا بد أن تأخذ في الحسبان مختلف العوامل الأخرى التي يمكن أن تفسرها .

وكما أشرنا من قبل ، فإن الغرامات كانت في العادة تفرض ببساطة نظير "فعل ما يخالف المذكور أعلاه" لكن في قليل من الحالات ذكرت الأخطاء على نحو أكثر تحديداً . فالجريمة في (H11) هي الاعتداء على العظام الموجودة في مشكاة الدفن ، وفي (H12) تغيير النقش ، وفي (H19) كتابة وثيقة غير مشروعة يعتبر تزويراً بالنسبة للمقبرة وتبطل شروط النقش ، وفي (H30) بيع المقبرة، وفي (H38) البيع أو التزوير .

ويتلقى الآلهة الغرامات (عادة ذو الشرى وغيره من الآلهة من أعوانه) والمسؤولون (عادة الملك ، ولكنها دفعت مرة للوالى (H38) ومرة دفعت الداف ك ل ا ، "الكاهن" (H16) ومن الصعب أن يحدد على وجه الدقة ما يفترض أن تمثله الغرامة . ولعل الإشارات إلى "السعر الكامل" أو "ضعف السعر" الخاص بالمقبرة (H1:8, 31:7) توحى بأن المقصود أن تمثل الغرامات - على الأقل في بعض الحالات - سعر المقبرة أو ضعفه .

وفي بعض الأحيان التي لم تذكر فيها أي غرامة ينص على ضياع الحقوق أو الحرمان : (H4, 26, 30) (التي تتضمن غرامات وأيضاً ضياع الحقوق في بيع

المقبرة) .

ويلاحظ أن الأمثلة السامية المشابهة لفرض الغرامات قليلة ، لكن الغرامات وغيرها من مظاهر النصوص الأخرى وجدت كذلك في نقوش المقابر الإغريقية والليشية (القرن الخامس قبل الميلاد وما يليه) .

هذه الخاصية كانت فيما يبدو منتشرة في مختلف أنحاء العالم الروماني . فبال تأكيد هناك الكثير من أوجه التشابه بين نقوش المقابر الرومانية والنبطية من وجهة النظر القانونية ولكن أوجه التشابه المختلفة يمكن تفسيرها على أساس أنها في كلتا الحالتين (الليشية والنبطية) فإن النقوش ذات صفة قانونية ولذلك هناك انتشار واسع لهذه الصيغة القانونية في الشرق الهلينستي . فمثلاً كانت تودع نسخة من نقش المقبرة النبطية في المعبد وفقاً لما يدل عليه نقش (H36:9) كذلك الحال بالنسبة للنقوش الإغريقية فإن نسخه قد أودعت السجل العام ، هذا وقد أشرنا إلى استخدام لفظ ن س ح ت أ للتعبير عن "النسخة" . وكما أشرنا من قبل فإن القانون النبطي يدين بالكثير للأعراف الآرامية والبابلية الآشورية .

هذا ولم يزل هناك الكثير مما لا نعرفه عن الثقافة النبطية . ولقد أخذ ف . ميللر يلح في التساؤل عما إذا كانت هناك مدارس وأداب وأساطير نبطية أو تاريخ قومي نبطي . مؤكداً أن كل ذلك لا بد وأنه كان موجوداً في مثل هذا المجتمع المتقدم ومع هذا فإنه ليس من المتوقع أن نكون قادرين على معرفة الكثير عنهم دون حدوث اكتشافات هامة لنصوص أخرى واسعة النطاق تكون مكتوبة على البردي أو الرق .

الخط النبطي واللغة النبطية

هذا الفصل يشكل مدخلاً مختصراً للغة وكتابة هذه النقوش و لا يتسع المقام لأن نتناول بالتفصيل المادة المستمدة من كل المجموعة الكاملة للنقوش والبرديات النبطية والمأخوذة من المواقع الكثيرة التي أفرزت تلك المادة .

١ - تاريخ الخط النبطي

إن الكتابة النبطية هي شكل متميز للكتابة الآرامية المتأخرة المشتقة أصلاً من الكتابة الآرامية التي كان الفرس يستخدمونها ، وما أن تفككت الإمبراطورية الفارسية حتى كانت اللغة والكتابة الآرامية موحدة ، ولكن مع ضياع قوة الوحدة السياسية تحولت اللغة والكتابة إلى لهجات أو لغات محلية فظهرت أشكال مختلفة للكتابة في تدمر وادسا (أورفا) والقدس والبتراء . وكما سنرى فإنه من المتعذر رسم حدود واضحة وسريعة سواء لبداية استخدام الكتابة النبطية أو لاندثارها النهائي و من الممكن القول بأن الكتابة النبطية لم تختف تماماً ، حيث أنها اندمجت تدريجياً في الكتابة العربية التي انبعثت منها أصلاً ، ومع ذلك ، وعلى سبيل القياس العملي ومقتضى الحال ، يمكننا أن نميز الدلائل المتوفرة على المرحلة النبطية المتميزة لهذا التطور في الكتابة بأنها تقع فيما بين حوالي سنة ١٠٠ ق م . و ٢٥٠ م وهذه الفترة تعتبر فترة طويلة من حيث التغييرات التي حدثت في الكتابة . ويمكننا إلى حد ما ، من خلال الاستعانة بالنصوص المؤرخة ، أن نتتبع التطورات التي حدثت في الكتابة النبطية في خلال هذه الفترة .

مع ذلك فثمة صعوبات جوهرية قد تواجهنا في هذا الصدد حيث هناك شكلان مختلفان للكتابة النبطية أحدهما الشكل البارز الضخم الذي استخدم في النقوش الرسمية خلال القرن الأول الميلادي - والتي تشمل (مع الأخذ بعين الاعتبار مواضيع سوف تشرح بالتفصيل أدناه) نصوص هذه المجموعة - وحوكي كثيراً في الكتابة باعتباره ذا مكانة رفيعة ، في تاريخ متأخر جداً . وثانيهما هو شكل الكتابة اليومية (أي ذات الحروف المتصلة) وهذا الشكل مختلف نوعاً ما عن شكل النقوش البارزة الضخمة ، ويبدو أن استخدامه ظل مستمراً طوال فترة تداول الكتابة النبطية ، وكان لها تأثير هام في نشأة الكتابة العربية . ولعل مما ضاعف من مشاكل التحليل أن الكتابة ذات الأحرف

المتصلة النادرة الاستخدام ، هو أن مكانها الطبيعي فيما يبدو كان مقتصرأ على الوثائق العملية المكتوبة على أوراق البردي ، وهي للأسف نادراً ما تبقى.

ومن ذلك أيضاً صعوبة تاريخ أصول الكتابة ذات الأحرف المتصلة . وربما كان ج . ستاركي قد أرجع أصولها إلى منتصف القرن الأول الميلادي ، غير أن دلائل البرديات تبين أنها كانت مكتملة في أواخر القرن الأول الميلادي ، وهذه الحقيقة وحدها توحى بأن أصولها لا بد أن تكون أقدم كثيراً مما ألح إليه ستاركي كما سيبرهن عليه فيما بعد بالاستناد إلى النقوش ذات الأحرف المتصلة المنقوشة على الحجر.

ولهذا السبب فإنه بعكس ما يتبادر إلى الذهن فإنه من الصعب وضع تاريخ للكتابة النبطية . ونقطة البدء الجديدة الوحيدة في هذا الصدد هي المواد التي يمكن تاريخها بشكل أو بآخر ، ومن أجل هذا الغرض يجب أن نلتفت أولاً للنصوص المشتملة على تواريخ واضحة ، ولحسن الحظ هناك كمية كبيرة نوعاً ما من هذه النقوش حتى قبل أخذنا بعين الاعتبار نصوص مقابر مدائن صالح وهناك دراسة حديثة تضمنت مائة نص مؤرخ بالإضافة إلى عدد من النقوش و توجد أيضاً نصوص يمكن تاريخها تاريخاً تقريبياً بسبب ارتباطها بنصوص مؤرخة تاريخاً صريحاً وأخيراً توجد نصوص أخرى مؤرخة على أسس أثرية ولو أن درجة تأكيدها أقل كثيراً .

وفيما يتعلق بأقدم تاريخ للكتابة النبطية تجدر الإشارة بصفة خاصة إلى البحث الذي أجراه ج . ستاركي ، وج . نافيه . وبالنسبة لتطور الكتابة النبطية المتأخرة يمكن الاعتماد على النصوص المؤرخة من القرن الثاني والثالث والرابع بعد الميلاد إلى جانب آلاف من النقوش غير المؤرخة .

كتابة نقوش مقابر مدائن صالح

تعطي الجداول البيانية التي سترد فيما بعد (ص ٣١٥) بياناً كاملاً للأشكال المستخدمة في النقوش المؤرخة ، أما التعليقات حول النقوش وكل على حدة فسوف تتضمنها الملاحظات المتعلقة بالكتابة التي تصاحب كل نقش في الفصل الثالث و مع هذا ، يجدر بنا أن نشير إلى عدد من النقاط الهامة، فنصوص مدائن صالح تمثل الأساس لدراسة كتابة النقوش النبطية البارزة

العائدة إلى القرن الأول الميلادي حيث أنها تشكل مجموعة مركزة وهامة من النقوش المؤرخة . وقد ذكرنا من قبل أنه يوجد واحد وثلاثون نقشاً مؤرخاً في نطاق فترة زمنية مقدارها حوالي ٧٥ سنة ، وكلها تنتمي لنفس النوع ، وكلها مكتوبة على نفس المادة ، وطبعاً كلها آتية من نفس الموقع . ولاشك أنه يندر أن تتوفر مثل تلك المجموعة الكاملة المركزة من النصوص المؤرخة التي تتيح الأساس لدراسة الخصائص الخاصة بأشكال الحروف .

ومع ذلك فهناك دلائل على درجة عالية من التخصص الحرفي في "الحجر" القديمة . فيبدو أن أعمال بناء المقابر كانت محصورة بين أيدي عدد صغير نسبياً من الأسر (انظر الفصل الأول والتعليقات حول النقوش كل على حدة مثل H3:9-10) و بالتالي فمن الممكن أن يفترض أن الكتابة الممثلة على المقابر والتي يحتمل أن البناء قد نسخها من نسخة أصلية بردية قدمها له كاتب قد تكون كتبت بأيدي عدد صغير إلى حد ما من الحرفيين ، ولا يمكننا حقيقة أن نفترض أن تلك الحرفة كان لها أي انتشار واسع .

وهناك مشكلة مماثلة تنجم عن كون الحجر مركزاً إقليمياً ثانياً ، فمن المحتمل استمرار احتفاظ الحجر بالشكل الأقدم لكتابة أكثر مما وجد في البتراء . ومن المؤكد أن كتابة النقش التركمانية ونقوش مأدبا (انظر الفصل الرابع) أكثر إتقاناً وصقلاً من نصوص مدائن صالح ، ومن ثم فلا بد من توخي الحرص في استخدام نصوص "الحجر" في الدراسة الأوسع نطاقاً حول الكتابة النبطية .

ضمن مجموعة نقوش مدائن صالح يتعذر تحديد الخصائص والسمات التي يمكن أن نعتبرها علامات مميزة فيما يتعلق بالتاريخ) ، أي التعرف على الخصائص القديمة والحديثة ، و لكن على العموم يوجد تجانس ملحوظ في أشكال الحروف ، غير أنه يمكن القول بأن بعض النقوش أو بعض أجزاء منها أقرب إلى شكل الكتابة ذات الأحرف المتصلة ، فالنقوش (H2, 3, 37) فيها ميل إلى الكتابة بالأحرف المتصلة ، في حين أنه في بعض الحالات مثل (H12) يظهر توقيع البناء بكتابة اسمه بأحرف متصلة ليميزه عن بقية النص. ويشكل ذلك دلائل على وجود شكل وسيط بين شكل الكتابة ذات الأحرف المتصلة على البرديات و النقوش الضخمة . فهي تبين على الأقل مدى التأثير الشديد لشكل الكتابة ذات الأحرف المتصلة في الكتابة العادية البارزة. على أنه يقابل ذلك من ناحية أخرى أن هذه النقوش تتفاوت تفاوتاً

واسعاً في تاريخها ، ومن ثم فلا يمكن اتخاذ شكل الكتابة بالأحرف المتصلة دليلاً على أنها تعود إلى تاريخ متأخر.

وهناك حروف مثل : أ ، ب ، هـ ، و ، ي ، ك ، ل ، م ، ن ، ف لها أشكال نهائية تختلف في الشكل سواء في أول الكلمة أو وسطها ، وهذه الأشكال النهائية تستخدم شكلاً ثابتاً دائماً ، وجداول النقوش المؤرخة تكشف بوضوح أن الأحرف ب ، هـ ، ي ، ك ، م ، ن ، ف تكتب في نهاية الكلمة بشكل ثابت ، والجدير بالذكر أن أقدم النقوش وأحدثها في مجموعتنا (H8, 16) تعود إلى العام الأول قبل الميلاد وبعده ، أما (H22) فإنه يعود إلى سنة ٧٤/٧٥ م وهو يعكس هذه الحالة حسبما نعرف، خاصة فيما يتعلق بالحروف التي تظهر في آخر الكلمة .

ويظهر حرف الألف في شكلين مختلفين فالشكل الذي يأخذ شكل X كبير يعكس استخدامه في نهاية الكلمة ، لكن الانطباع الذي يعطيه هذا الحرف أنه كان في فترة انتقالية توحى بأنه (المستخدم في نهاية الكلمة) كان في طريقة إلى الاختفاء أو أنه اختفى في الكتابة ذات الأحرف المتصلة التي قد أثرت في الكتابة البارزة الضخمة فمثلاً في أقدم نقوشنا (H8) استخدم شكل هذا الحرف في نهاية الكلمة بشكل غير ثابت ومستقر ومع مرور الزمن أصبح استخدام هذا الشكل لحرف الألف نادراً بل أنه في نقش (H2) (المؤرخ في سنة ٤/٥ م) ونقش (H3) (المؤرخ إلى ٣١/٣٣) اللذان يتميزان بأسلوب الكتابة ذات الأحرف المتصلة يلاحظ فيهما إغفال استخدام الشكل الأخير تماماً .

أما الشكل الأخير الخاص بحرف اللام ذي العروة إلى يمينه فتكرر وجوده في غير الموضع الأخير في عدد من المرات خاصة في النقوش القديمة في المجموعة (H1, 16, 27, 29) . ويوحى ذلك بأن الشكل "الأخير" أقدم من الشكل العام له . مع أن اقتصار استخدامه في نهاية الكلمة لم يثبت تماماً في نقوش مجموعتنا ، (ولو أنه اقتصر على ذلك في آخر نقش في المجموعة) . لذا فإنه يصعب للغاية أن تعزى أي دلالة زمنية لهذه الخاصية .

وأما بالنسبة لحالة حرف الباء فالشكل الأخير له يتفاوت تفاوتاً كبيراً في حين أن الشكل الأخير لحرف الواو - الذي لا يختلف كثيراً عن الشكل غير الأخير له - لا يمكن اكتشافه بسهولة دائماً ولو أنه يتكرر تكراراً واضحاً في عدد من النقوش ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالشكل المستعمل في الكتابة ذات

الأحرف المتصلة والذي عرف من مصادر أخرى .

ويرى ستاركي أنه كان هناك تطور جديد في الكتابة النبطية نشأ منذ فترة حكم مالك الثاني (٤٠ - ٧٠ م) حدث فيه اتجاه أكثر نحو استخدام الكتابة ذات الأحرف المتصلة ، خصوصاً في المنطقة الجنوبية من المملكة النبطية ، مشيراً إلى نقوش الحجر ، وقد أشار بالتحديد إلى فقد حرف الحاء لنقطته اليسرى ، وفقد حرف الميم للخط الصغير المنفصل من أعلى الجانب الأيسر، وبقاء حرف الألف في آخر الكلمة على شكل العروة دائماً ، و هذه المؤشرات يمكن ملاحظتها في جداولنا البيانية عن الكتابة .

وبالنسبة لحرف الحاء يمكن ملاحظة شكل متميز له في النقوش (H2, 20, 37, 22) وقد أشرنا من قبل إلى أننا بالنسبة لحالات النقوش (H2, 20, 37) قد نكون بإزاء نقوش كتبت بأحرف متصلة أو نقوش تأثرت تأثيراً شديداً بهذا النوع من الكتابة ، مع العلم بأن النقش (H22) هو كما ذكرنا آخر نقوش المجموعة . وتجدر الإشارة بأن تاريخ النقش (H2) ٥/٤ م الأمر الذي يحدونا إلى أن نرجع التاريخ الذي قدره ستاركي لنشأة الشكل الجاري إلى الوراء كثيراً .

أما بالنسبة لحرف الميم فالدلائل المتعلقة به مقصورة على النقوش (H4, 36, 12, 5) (وكلها داخلة تقريباً في نطاق الفترة ٣١ - ٤٣ م) والنقش (H3) (٧٢/٧١ م) ، في حين أن الشكل المعتاد لذلك الحرف موجود في كل نطاق الفترة التي غطتها مجموعتنا . ويشير ذلك ثانية إلى أنه لا بد من إرجاع التاريخ الذي قدره ستاركي إلى الوراء إلى حد ما .

وأما بالنسبة لأشكال حرف الألف فإن النقش (H38) (٦٤/٦٣ م) استعمل فيه شكل X في نهاية الكلمات وهو الشكل الذي استخدم على نطاق واسع في النقوش المبكرة . أما بقية النقوش مثل (H5, 8) فقد استعمل فيهما كلا الشكلين في نهاية الكلمات ، وبالنسبة للنقشين (H2) المؤرخ في ٥/٤ م و (H3) المؤرخ في ٣٢/٣١ م بالإضافة إلى الجزء المكتوب بالأحرف المتصلة (توقيع البناء) في (H20) المؤرخ ٥٠/٤٩ م ، فقد استعملوا فيه شكل الألف ذي العروة عند كتابته في نهاية الكلمة ، الأمر الذي يبرهن بوضوح على أن تلك الممارسة كانت معروفة فعلاً في وقت مبكر في القرن الأول ولو أنها ربما كانت مقتصرة إلى حد كبير على النقوش ذات الأحرف المتصلة . كذلك استعمل الشكل ذو

العروة لحرف الألف في كل المواضع في النقش (H10) (٤٨/٤٩ م) ، و يشير هذا مرة ثانية إلى أن ما أُلح إليه ستاركي من أن هذه الخاصية يرجع تاريخها إلى حكم مالك الثاني قد يكون مضللاً .

وبالنسبة للحروف المزدوجة أي التي يكون الحرف فيها مكوناً من حرفين متصلين معاً ، فهي حالات معتادة ، ولو أنه لا يبدو فيها كثير من ثبات النسق في استخدامها ، ولا هي أكثر تكراراً في الأمثلة الأقرب إلى شكل الكتابة بالأحرف المتصلة ضمن المجموعة ، غير أن هناك دلالة على أن أغلب الأشكال في هذا النوع من الكتابة النبطية بها حروف مزدوجة أكثر ، مثلما يظهر في الجزء النبطي بالوثيقة الإغريقية التي نشرها هـ.ج. بولوتسكي . وقد وجد في هذا الشكل من الكتابة اتصال بين حدود الكلمات مما يمكن أن يسفر عن استخدام الشكل الوسيط للحرف بينما يستخدم في مكان آخر الشكل الأخير العادي .

ولم تظهر في نصوصنا علامات أو مسافات بين الكلمات على الإطلاق مع أنه توجد بضع حالات لذلك في نصوص أخرى غيرها .

وتجدر الإشارة إلى ما يحدث أحياناً من تسطير السطور (H8, 30) للمساعدة في الكتابة ، ولو أن الانطباع العام كثيراً ما يكون الافتقار إلى التخطيط في التنظيم الداخلي للنقوش. ولعل مرجع ذلك أن النحات كان ينسخ من أصل وثيقة بردية . على أنه يقابل ذلك من ناحية أخرى أن هناك بعض حالات يتفاوت فيها حجم الكتابة في مختلف أجزاء النقش وهذه التغييرات في حجم الكتابة يطابق أجزاء جديدة للنص والمثال الواضح لذلك بصفة خاصة هو النقش (H31) .

٢ - النبطية والأشكال الأخرى للأرامية

من الناحية اللغوية تندرج النبطية بكل وضوح ضمن فئة الآرامية الإمبراطورية وهي مختلفة قليلاً عن آرامية الإنجيل ووثائق الفيلة واستناداً إلى ك . بيير فإن النبطية تقف إلى جانب الآرامية الإمبراطورية الأخمينية أكثر من الحسمانية . وليس من السهل التوصل إلى تصنيف مرض لهذه المرحلة من الآرامية ولا مجال هنا لتتبع مسألة الألفاظ والمصطلحات التي تثير اللبس . وينسب بيير النبطية إلى الآرامية الإمبراطورية ما بعد

الأخمينية ، جنباً إلى جنب مع الآرامية التوراتية والترجومية والتدمرية . أما ج . أ. فيتزماير الذي ناقش مسألة الألفاظ بإسهاب ، فقد قسم اللهجات على أساس زمني ، وسمي الآرامية التوراتية بالآرامية الرسمية ، في حين نسب النبطية إلى الآرامية الوسطى (إلى جانب التدمرية والسريانية المبكرة) .

مع ذلك ، ورغم صفة المحافظة للنبطية والتدمرية ، فقد كانت تجري في فترة النصوص النبطية عملية تشكيل لهجات مميزة من الآرامية مثل المندعية ، والسريانية الكلاسيكية . ويجدر بالذكر أن النقوش السريانية المبكرة وتلك الخاصة بتدمير والحضر ، وكذلك الآرامية المبكرة من منطقة القدس كانت كلها متعاصرة تقريباً مع النصوص النبطية .

وبالنسبة لقواعد النحو والصرف النبطية فقد تناولها ج . كانتينو بالشرح الكامل ، ولو أن شرحه ليس كله مرضياً تماماً ، فضلاً عن أن ج . هـ . ليفنسون اتخذها موضوعاً لرسالة دكتوراه ولكن فيما عدا ذلك لم يتم تناولها إلا من خلال دراسة اللهجات الآرامية ككل ، ولقد أشرنا من قبل إلى التماثل بين النبطية والآرامية الإمبراطورية ، ولكن هناك بعض الخواص التي يجدر ذكرها على وجه الخصوص :

(أ) حرف النون يظهر قبل الحروف الساكنة في حين يدغم في القمرانية والترجومية والتدمرية ، غير أن ذلك ربما كان مجرد مسألة هجاء تاريخي كما هو الحال في بعض الأمثلة السريانية . و النماذج ذات النون في الآرامية الإمبراطورية بالفعل قراءات لغوية أو تاريخية .

(ب) الجمود الإملائي يتمثل في استخدام حرف ش الذي يمثل لغوياً حرف س ١ الأصلي (فيما قبل السامية) و كلا الصوتين مثلهما في الإملاء الآرامي القديم الحرف ش . ورغم أن التمييز في النطق بين س ١ و س قد تلاشي ، إلا أنه ظل بدرجات متفاوتة في الإملاء . لذا فقد ظل الشكل ش يستعمل للدلالة على الحرف س ١ الأصلي (الذي تحول إلى س) في النقوش السريانية المبكرة التي استعملت الشكل س للدلالة على س ١ الأصلي ، ولو أن ذلك لم يتبع في السريانية الكلاسيكية ، و من المحتمل أننا في النبطية أيضاً بإزاء مجرد مسألة هجاء تقليدي ، و لا يعني ذلك استنتاج المحافظة على الصوت المتميز س ١ ، وعلى أية حال فإنه في :

١) إذا كانت الآرامية النبطية مستعملة في الكتابة فقط ، فليس من المستبعد أن الكتاب الذين لم يكونوا معنيين بتطوير الآرامية الحية التي طرأت عليها تغيرات ، قد احتفظوا بذكرى باهتة لنطق الحرف س١ بصورة واضحة متميزة .

٢) أيا كان مدى هذا الاحتمال فإن كون الصوت س يمكن أن يمثل في بعض الحالات الشكل ش يفتح المجال للتساؤل عما إذا كان من الممكن أن يكون الشكل ش يمثل الصوت س في بعض الحالات الأخرى ، لا سيما في الكلمات والأسماء ذات الأصل العربي .

ج) توجد بعض الدلائل على التبادل في نطق الحرفين النون و اللام ، وهذا واضح في هجاء اسم الملك مالك الذي كتب م ن ك و (انظر 7 : 4 H) .

د) توجد بعض دلائل على تغير الصوت $\bar{a} > \bar{o}$ في بعض الظروف كما يحدث في اللهجات الأخرى . على هذا فإن هجاء أ ن وش أي "رجل أو أي شخص" (H3:3 وغيرها) يوحي بأنه لا بد أن النطق كان (إنش) وتلك هي ظاهرة واسعة الانتشار .

هـ) الضمير الغائب لجمع المذكر هو هم (هم) (ويستعمل أيضاً للمؤنث في النبطية) كما في آرامية الفيلة وأربع مرات في الآرامية التوراتية (كتاب عزرا) وأحياناً في الترجومية الفلسطينية ، وذلك بالمقارنة به ن في دانيال، ومكان آخر في عزرا وفي القمرانية وفي التدمرية .

و) ضمير المتكلم الجمع ن أ (مقارنة بالتوراة الآرامية) يفترض أنها تمثل نا بالمقارنة بـ an السريانية والتدمرية .

ز) اسم الموصول دي (مقارنة مع التوراة الآرامية) يقابل الصيغة المتاخرة د الذي يوجد جنباً إلى جنب مع دي في القمرانية والتدمرية كما أنه الشكل الوحيد في النقوش السريانية المبكرة .

ح) اسم الإشارة هو د ن هـ "هذا" (مقارنة مع التوراة الآرامية) يقابل الصيغة العادية الواردة في النقوش القمرانية د ن .

ط) اختفاء التمييز بين جمع المذكر السالم والمؤنث السالم . وهذه الخاصية موجودة أيضاً في التدمرية ولو أن المحافظة على التمييز فيها أمر عادي جداً .

ي) ظهور صيغة الفعل هفعل في النبطية (لكن ليس في مجموعة نقوشنا) وأحياناً نادرة أفعل . ومن أمثلة ظهور هفعل ذلك الذي تضمنه نص من البتراء يرجع تاريخه إلى حوالي سنة ٧٠ ق . م . وأما التحول إلى صيغة أفعل ، الذي بدأ في تاريخ مبكر فإنه يظهر فقط في آرامية قمران و الترجوم وفي التدمرية وكذلك السريانية .

ك) تكرر ظهور الأداة أي ت ي "هناك" (H1:7 إلخ) .

ل) كثرة ظهور ي ت المستعملة على نطاق واسع في الآرامية الغربية تظهر أيضاً في النبطية (انظر H2:5) .

وحقيقة أن العديد من هذه السمات يميل إلى المحافظة ، إضافة إلى جانب التشابه العام بين النبطية والآرامية الإمبراطورية الأخمينية تدعم الرأي الذي يرى أن النبطية أساساً كلغة كتابة هي شكل مبكر للآرامية حفظ في محيط كتابي إزاء التطور المستمر في اللغة ظهر في اللهجات الأخرى ظهوراً أوسع .

ولو جاز لنا أن نحاول تشكيل كلمات النصوص لكان دليلنا هو شكل اللغة القديمة التي حفظها الكتاب الأنباط ، وليس الدلائل الخاصة بالنطق الأحدث الذي استمر باقياً في أنظمة النطق المختلفة ، فمن المفترض أن الكتاب الأنباط قد خلفوا شكلاً مهجوراً من النطق ، وكذلك من المؤكد أن تؤخذ في الاعتبار حقيقة أن كثيراً من الأسماء والمفردات اللغوية بل وحتى الأشكال النحوية قد شابتها صبغة عربية ناتجة عن تداخل اللغات . لذا فإنه من المرجح أن أسماء الأشخاص مثل (H36:1) ح ل ف و كانت تنطق خلفو أي "خلف" ، رغم عدم وجود حرفي الفاء والخاء في الآرامية ، وبالمثل فإنه يكاد لا يكون هناك شك في أن الأدوات ذات التأثير العربي مثل الأداة ف (H1:7 إلخ) التي كانت تنطق كما في العربية ف والأداة ع ي ر (H1:5 إلخ) والتي كانت تنطق بدون شك غير .

ومسألة حرف الواو في نهاية الكلمة بأسماء الأشخاص مثل ح ل ف و وفي أسماء النكرة في بعض النصوص مسألة أعقد من أن تتناولها هذه الدراسة . ولكن يكفي أن نذكر أن الكثير كتب حول هذا الموضوع وإن الرأي الذي يعتقده مؤلف هذه الدراسة هو أن ذلك الحرف يمثل الحرف المتحرك ا الأخير ، ولعله يرتبط على نحو ما بعلامة رفع آخر الكلمة في اللغة العربية .

وبالنسبة لمفردات اللغة فهي بصفة عامة آرامية واضحة مع بعض التطورات الآرامية الداخلية للمعنى وبعض الكلمات العربية .

٢ - النبطية والعربية

أشد خصائص اللغة النبطية تميزاً بالمقارنة بكل اللهجات الآرامية الأخرى في تلك الفترة هي صبغتها العربية . وقد لاحظ ذلك حتى أقدم المعلقين على النصوص النبطية ، وهي خاصية ملفتة للنظر إلى حد أنها تكاد تهيمن على المناقشات حول اللهجة النبطية و هذا التأثير العربي ، الذي لا يلاحظ مثلاً في الآرامية اليهودية والسريانية ، يتمثل في ظهور أشكال نحوية ومفردات معروفة في السامية أو في العربية وحدها .

ويجدر بالذكر أن هذه الخواص نادراً ما تظهر معاً في داخل نطاق نص بعينه بقدر من التركيز يكفي للإيحاء بأن النص بالعربية مثلاً . وكل النصوص في مجموعتنا بالآرامية بدون لبس في حين أن نقش النمارة مكتوب بالكتابة الآرامية والنبطية ولكنه بالعربية دون أي لبس . وهناك حالة هامة لنقش ذي تاريخ متأخر بدرجة كبيرة (JSI 17) إذ يرجع تاريخه إلى ٢٦٧/٢٦٨ م به مجال للجدل . فقد جرى الاعتقاد المتوارث على أن هذا النص بالآرامية وقدمنا حجة على أنه بالعربية وإذا كانت حجتنا صحيحة فإننا بإزاء أقدم نص مؤرخ مكتوب بالعربية التي نعرفها ، و لكن النتيجة المنطقية عدم ملائمة الاستشهاد بالنقش (JSI 17) كمثال للعربية في النبطية.

ويمكن القول بأن الآرامية النبطية مرت بنوع من التأثير المتزايد من العربية . وإيا كان الحال فكل الظروف تشير إلى أن لغة الحياة اليومية لمعظم أولئك الذين كانوا يستعملون الآرامية النبطية في نقوشهم الرسمية وغير الرسمية كانت نوعاً من العربية .

السمات العربية في نقوش مدائن صالح

من بين الإسهامات التي قدمت في دراسة السمات العربية في النصوص النبطية بصفة عامة يمكن الإشارة بصفة خاصة إلى دراسات ج . كانتينو ، وم . أوكونور ، وإذا اقتصرنا على السمات التي تظهر في نصوصنا المتعلقة بمدائن صالح فيمكننا أن نذكر الأمثلة الآتية للسمات المتعلقة بالصوت وسمات الإعراب والسمات ذات العلاقة بالمفردات .

فالسمات الفونولوجية هي $\bar{a} > \bar{o}$ /عدم إدغام حرف النون / تباديل حرفي النون واللام / التخلي عن الهجاء العادي بفعل التأثير العربي .
ومن ناحية الإعراب : الأداة ف/ استعمال م ن .
ومن الناحية المفردات أن هـ/ أص د ق / ج ت / و ج ر / و ل د / ح ل ت /
ح ل ي ق ت / ك ف ر / ل ع ن / ن ش ي ب / ع ي ر / ف / ص ري ح / ر ه ن /
ر ت ب / ش ل و .

ومما يجدر ذكره أنه لا توجد أي دلائل على تأثير صرفي من العربية (على أساس عدم أخذ (JSI 17) في الاعتبار) ولو أنه يمكن القول بأن ع ي ر التي كانت تستعمل كحرف جر أو كأداة نفي مثل العربية "غير" والأداة ف التي كانت تستعمل كالعربية "ف" يقتربان من نطاق الصرف . على أنه يقابل ذلك من الناحية الأخرى أن التأثير العربي فيما يتعلق بالمفردات يبدو أنه كان تأثيراً كبيراً .

مع هذا فلربما يكون هناك خطر في القفز من تلك الحقائق التي لا لبس فيها إلى الاستنتاج المفرط في التبسيط ، بأنه يوجد تأثير عربي كبير هنا . لذلك من الضروري مراعاة بعض الملاحظات الضرورية وهي :

(١) كثير من الانطباع عن الصيغة العربية مصدره المفردات العربية . ومع كونها مؤثرة للغاية لكنها ليست عميقة الدلائل من وجهة النظر هذه ، لاسيما إذا كانت مقصورة على مجالات معينة من الحياة . ففي شؤون الإدارة والشؤون العسكرية تبين النبطية وجود تأثير إغريقي روماني قوي . لكن ذلك لا ينطوي على دلالة لغوية ولا أي دلالة عرقية متعلقة بمن عمل النقوش . وقد استخلص أوكونور استنتاجاً مماثلاً عن المفردات العربية مشيراً إلى

ارتباطها بصفة عامة بمجال دلالات الألفاظ المتعلقة بأمور الدفن القانونية بعينها .

(٢) من الصعب التوصل إلى رؤية متوازنة تماماً لسمات المفردات العربية ولا حتى السمات النحوية والإعرابية في فترة واقعة قبل وجود النصوص العربية . والكثير من المفردات التي تبدو عربية تبين أنها فقط ترتبط ارتباطاً مبهماً بالمعاني الموجودة في المعاجم العربية الكلاسيكية . كما أن تأثير المفردات العربية غير متجانس . وثمة عدد من المفردات مثل ك ف ر (انظر مناقشة H1:1) وأ ص د ق (انظر H3:6) اللذان يستشهد بهما كثيراً في هذا الصدد ، لهما ما يماثلهما في اللحيانية لا في العربية الكلاسيكية . وبالنسبة لحالة كلمة ك ف ر فربما تكون هناك أقلية متميزة تستخدمها داخل نطاق المملكة النبطية مع العلم بأنها موجودة فقط في الجنوب .

(٣) هناك دلائل محددة على وجود اختلاف بين العربية والعربية الكلاسيكية في خلفية النصوص النبطية . ونقدم في هذا الصدد مثالين :

(أ) الإملاء النبطي يوحي بأن الأصوات العربية الكامنة خلف النبطية مختلفة عن تلك الخاصة بالعربية الكلاسيكية . ففي الاسم العربي الواضح ع ب د ع د ن و ن لا بد أن النطق كان ع بد عدنون الذي ينطوي على نطق مختلف للحرف الأصلي a المدة عن ذلك الخاص بالعربية الكلاسيكية "عدنان" .

(ب) هناك رأي يقول إن أسلوب الهجاء يبين أن العربية الكامنة خلف النبطية كانت قد فقدت النهايات الدالة على الحالة . وقد ترتب على ذلك عدم التمكن من تقصي آثار النهايات الدالة على الحالة بطريقة متجانسة . ففي (JSI 17) على سبيل المثال بدت أشكال الرفع مستعملة في مكان خاطئ . ويبدو أن هذا ينطوي على أن اللهجة الكامنة خلف النقوش النبطية هي شكل من العربية أكثر تطوراً من العربية الكلاسيكية ، ولو أنه يوجد بعض الخلاف حول تاريخ ضياع النهايات الدالة على الحالات في العربية الكلاسيكية .

وتوحي غزارة المفردات العربية (دون التأثير الصرفي) بأن كُتاب النقوش كانوا قديرين إلى حد كبير في الآرامية القانونية والإدارية مع أنهم كانوا يستخدمون كثيراً من المفردات التي تعد غريبة عن الآرامية ولا بد أنها كانت مأخوذة من لغة الحياة اليومية للكتاب . وبعض المفردات الدخيلة تتعلق

بمجالات خاصة من الحياة مثل علاقات القرابة ، والنسب ، وقانون الملكية ، وتقاليد الدفن ، ويرجع أنه لم يكن هناك مفر من استعمال الألفاظ والمصطلحات المحلية غير الآرامية ، نظراً لأن ما يعادلها في الآرامية ليس له نفس الدلالة الفنية . ومن الجدير بالذكر أنه يبدو أنه كان هناك ترجيح لتلك المفردات العربية في جنوب المملكة النبطية ، وبالتحديد في مدائن صالح .

إن مسألة تأثير المفردات العربية لها أهمية كبيرة ، فهي تؤكد افتراض أن أهالي المنطقة كانوا يتحدثون نوعاً من العربية من قبل ، و نفس الشيء تثبته بعض الأخطاء الطفيفة التي شابت الآرامية ، وهي أخطاء أفضل ما يفسرها هو أن الكاتب لم يكن بالفعل يتحدث بالآرامية .

ومع هذا فإن مسألة تأثير النبطية بالعربية مسألة معقدة ومبهمّة إلى حد كبير . وهي مسألة لا يجب أن نقلل من أهميتها ولكن لا يمكن إثبات الطبيعة المحددة لها في غياب مواد عربية معاصرة للنبطية .